مدون@الشروق





أرز باللبن لشخصين

رحاب بسام



عربون محبة..

إلى عزة وبسام وشهاب.. ربنا ما يحرمني من ضحككم ودوشتكم..

إلى خالي جابر ولمعة عيونه..

إلى روح جدتي.. تيتة يلدز.. اللي حكت لي أول حدوتة..

بالأمس حلمت بالبطيخ

أتمدد على سريري في شبه إغماءة رافعة قدمي على وسادة لتكون أعلى من مستوى جسمي. الدنيا حر.. حر.. حر. يؤلمني الحر جدًا لأنه يخفض ضغطي المنخفض بطبيعته، وتتورم يدي وقدمي من الرطوبة. أمارس هوايتي المفضلة في ظل هذه الظروف: الحملقة في السقف. زينت سقف غرفتي بالنجوم والزهور الفسفورية. كيف نسيت الفراشات؟ لماذا لا توجد فراشات فسفورية بجوار الزهور الفسفورية؟ على العموم هذا خطأ يمكن تداركه. يا رب.. يا رب بطيخة.. وتكون ساقعة يا رب. أركض في دماغي خلف فقاقيع الصابون. فقاقيع.. فقاقيع.. فقاقيع. إيه الكلمة دي؟ بلالين أحسن. بلالين الصابون.

الصابون.. الصابون.. الصابون. إيه الكلمة دي كمان؟ ماله الكلام عامل كده ليه؟ إني أسبح في المهلبية تمامًا. كم سيكون رائعًا لو عملت في مجال بلالين الصابون: أجلس على دكة خشبية تحت شجرة ظليلة وأمامي صندوق خشبي عليه جردل كبير، وأكواب بلاستيكية، وقطع من خرطوم بلاستيكي. يأتي الأطفال ساعة العصاري ليشتروا مني أكواب الصابون، المخلوط بقليل من السبرتو، فهو الذي يجعل البلالين ملونة، هذا هو سر الصنعة، ولذلك يأتي الأطفال ليشتروه مني دونًا عن باقي

بائعي البلالين. يغطِّسون أطراف قطعة الخرطوم في كوب الصابون، وينفخون ملايين البلالين. أحذرهم من شرب الصابون أو السبرتو لأن ذلك سيجعلهم لا يستطيعون أكل الآيس كريم أو الجيلي طوال حياتهم. يسددون ثمن البلالين بشقق من البطيخ. أقضي الصيف كله في بيع البلالين وأكل البطيخ على الدكة.

يدق جرس الباب. اللعنة! ا ـ ل ـ ل ـ ع ـ ن ـ ة بجد يعني! من الطارق الداعي الذي جاء ليفرقع مشروعات البلالين؟ أقوم ببطء شديد محاوِلة ألا يغشى عليّ. أجلس مستقيمة على السرير وأضيق عيني لتذهب النقط السوداء التي ظهرت أمامي فجأة. الضغط الواطي هيفضل طول عمره واطي يا جدع.

أفتح الباب لأجده أمامي بتعبير في منتهى الجدية: «كل الناس بتقول إنها بتحبك، لكن أنا الوحيد اللي جبت لك بطيخة ساقعة».

أشب على رجلي لأطبع قبلة على خده وأسحبه من يده للمطبخ. أقسم البطيخة نصفين وأعطيه نصفها وآخذ الآخر. أفتح باب الثلاجة ونفترش البلاط البارد أمامها ونأكل البطيخ بمغارف الآيس كريم.

«أنا كنت في السرير باحلم بالبطيخ والبلالين».

«ليكي عين بعد كده تقوليلي إني مش فارس أحلامك؟».

«لأ ماليش.. من هنا ورايح إنت فارس أحلامي.. البطيخية!».

محاولة لترجمة الحياة

بصعوبة بالغة أجد مكان لسيارتي الصغيرة في شارع جانبي متفرع من شارع الشيخ ريحان. ألعن نفسي لأنني لم أفكر في صعوبة صف السيارة، وبالتالي تأخرت على حصة الترجمة الفورية، أول حصة بعد العيد. أحاول ألا أدع توجيهات السايس المتضاربة ـ والتي يكيلها لي بصوتٍ عالٍ كلكمات سمعية ـ تزعجني. ألملم أغراضي وأضع المحمول ومفاتيح السيارة في حقيبتي. ألتقط كراستي ثم أُعيد النظر في الحقيبة لأتأكد من وجود مفاتيح السيارة بها. أخرج من السيارة وأُعطي السايس «الإتاوة»، ثم قبل أن أغلق باب السيارة أتأكد من وجود المفاتيح في الحقيبة.

من آخر الشارع نصف المظلم تقترب مجموعة من الأولاد والبنات في سن المدرسة. أرى أن مجموعة الأولاد يسيرون خلف وأمام وبجوار مجموعة البنات. الأولاد يعاكسون البنات، والبنات يضحكن أو يسرعن أو يتمايلن أو ينهرن الأولاد. فجأة أسمع من خلفي صوت طفولي يسب البنات بأقذع الشتائم! أستدير لأرى ولد لا يمكن أن يتعدى العاشرة من عمره. يشتمهن ثم يجري. يتكهرب الجو. أستمر في السير ببطء وأرى أن الأولاد أخذوا في الاقتراب أكثر من البنات، والتطاول عليهم بالكلام، والبنات توترن وأخذن في الرد على الأولاد. يتعالى الصياح وأنا أحث الخطى لألحق بحصتي.

(على المترجم الفوري أن يحاول فهم السياق جيدًا).

يخفق قلبي بعنف حتى أشعر به يضغط على رقبتي ويكتم أنفاسي. قبل أسبوع من اليوم، وفي مكان قريب من هنا، اعتدى مجموعة من الشباب على بنات بالجملة، ليلة العيد، وفي واحد من أكثر شوارع القاهرة ازدحامًا. ما الذي يمكن أن يحدث هنا الآن؟

(وأن تكون لديه سرعة استجابة ليعرف كيف يتصرف في المواقف غير المتوقعة).

عند بوابة الجامعة الأمريكية أرى سيارة دورية شرطة. بيد مرتعشة أُخرج بطاقتي لرجل الأمن، وأرى أن هناك ضابط يتحدث مع آخر بجوار البوابة. استرد بطاقتي وأدخل المبنى مسرعة وأبدأ في صعود الدرج.

(ويجب أن تكون لدى المترجم الفوري القدرة على «ترقيع» أخطائه).

أستدير وأنزل الدرج. أخرج من البوابة لأرى الضابط مازال هناك.

(وأن يتمتع برباطة جأش وثبات وثقة بالنفس).

يهرب صوتي وأتلجلج تمامًا وأنا أقول للضابط إن هناك، على ناصية هذا الشارع، نعم، هذا الشارع، بعد تلك الناصية، نعم نعم، هذا هو، على ناصيته هناك مجموعة من الأولاد يتبعون مجموعة من البنات، ويضايقونهن.

(وعليه أن يتحكم في نبرة صوته وتنفسه ومخارج ألفاظه).

يحاول الضابط أن يفهم مني أكثر فأجد نفسي عاجزة عن تكوين جمل بسيطة. تتفكك الكلمات في عقلي فأُدلي بها كما هي: الشارع.. ولاد.. وبنات.. ضلمة.. هناك.. دلوقتي.

(وأن يعرف أن ليس عليه سوى توصيل ٧٠٪ من المعنى، ولكن يجب أن يركز ليعرف أين المعلومة المراد توصيلها).

يطمئنني الضابط أنه سيذهب فورًا لتفقد الوضع، ويسألني عن الشارع مرة أخرى، قبل أن يعود لاستكمال الحوار مع زميله.

أستقل المصعد هذه المرة. أدخل المعمل وأرمي بنفسي في أول كابينة، ألملم أطرافي حولي وأرتجف في مقعدي بصمت. بعد ربع ساعة، وعندما لاحظت أستاذتي أنني أنظر لها بتركيز شديد وبدون أن يطرف لي جفن، وأنها تتكلم وأنا لم أُخرج كراستي بعد أو أضع السماعات حتى، أوقفت التسجيل وسألت: «في إيه يا رحاب؟» ففتحت فمي فلم يخرج سوى: «أنا خايفة أوي».

أرز باللبن لشخصين

لعمل طبق من الأرز باللبن لشخصين ستحتاجين إلى ربع كوب من الأرز. أولًا، أخرجي اللبن من الثلاجة. ثم في طبق أبيض واسع ضعي الأرز ونقيه من أي شوائب. ضعي كل شيء جانبًا: مراراتك، حزنك، غضبك، إحباطك، وأي فكرة سيئة. تتطلب هذه الوصفة بالًا طويلًا والكثير من الابتسامات المفاجئة. قومي بكل الخطوات بتروٍ. ليست هناك طريقة سريعة لصنع الأرز باللبن، ولا تصدقي أي وصفة تحاول أن تجعلك تهرولي في صنعه. من الأفضل أن تكوني وحدك في المطبخ... بل في المنزل كله، وأن تغلقي جميع الهواتف وترتدي شيئًا مريحًا. اغسلي الأرز أكثر من مرة حتى يصبح ماؤه نقيًا. انقعيه في كوبين من الماء الدافئ (وليس المغلي) لثلاثين دقيقة.

في هذه الأثناء صبي مقدار خمسة أكواب من اللبن في إبريق زجاجي شفاف. اجلسي باسترخاء محتضنة الإبريق بين كفيك. سيعمل هذا الحضن اليدوي على تدفئة اللبن. بحنان بالغ ربتي على الإبريق. فكري أفكار سعيدة. دندني بأغنية حالمة..

أنا لحبيبي وحبيبي إلي.. يا عصفورة بيضا لا بقى تزعلي.. لا يعتب حدا.. ولا يزعل حدا.. أنا لحبيبي وحبيبي إلي..

تذكري أن كل ما ستقومين به سيصبح جزءًا من الأرز باللبن يشعر به كل من سيأكله، حتى الأغنية.. خصوصًا الأغنية.

في إناء طهو متوسط العمق اسكبي اللبن، وبعد تصفية الأرز من الماء أضيفيه على اللبن الدافئ. قلبي ببطء في اتجاه واحد لمدة ربع ساعة.

حبيبي نده لي.. قال لي الشتي راح.. رجعت اليمامة وزَهّر التفاح..

في هذه اللحظة تذكري كلمة جميلة، قبلة طويلة، ابتسامة دافئة عبر غرفة مزدحمة، أو حضن مُشبع. دندني.. نعم.. ابتسمي أيضًا.. نعم نعم.. هذه هي لمعة العيون التي تلائم الأرز باللبن.

وأنا على بابي الندي والصباح...وبعيونك ربيعي نور وحِلي..

بإحساس مرهف أضيفي رشة من القرفة وأخرى من الفانيليا، كل رشة بيد. افركي يديك سويًا ومرريهما باستغراق على رقبتك. الرقبة مكان مهم للحصول على أرز باللبن ناجح. استمري في التقليب لمدة ربع ساعة على نار هادئة جدًا حتى يطرى الأرز. اقتربي من الإناء واهمسي بسرٍ ما. اختاري السر جيدًا. اضيفي نصف كوب من السكر واستمري في التقليب ليذوب تمامًا.. تمامًا.. دائمًا يأتي السكر في النهاية وبعد طول انتظار، وكلما هدأت النار من تحته كلما ازدادت حلاوته.

وندهني حبيبي جيت بلا سؤال.. من نومي سرقني.. من راحة البال..

يقدم دافئًا في طبق زجاجي وردي اللون. للتزيين رشي قليلًا من القرفة عليه، وبشفاه شبه منفرجة اطبعي بصمتك الخاصة على وجهه. يُلتهم بالأصابع ببطء مع شخص تحبينه.

وأنا على دربه ودربه عالجمال.. يا شمس المحبة حكايتنا اغزلي(١) .

---

(١) الأغنية المصاحبة: «أنا لحبيبي» لفيروز.

أيام القط الأسود

أنا أحيا حياة بسيطة للغاية. في أغلب الأيام أستيقظ من النوم قبل المنبه بدقائق، وأستعد لمقابلة الدنيا، وأنزل للشارع. أقابل القط الأسود، وينقبض قلبي، وأبدأ يومي. ظل القط الأسود هو أول من أراه في الشارع صباح كل يوم، سواء كنت في القاهرة، أو الإسكندرية، داخل مصر أو خارجها، في مدينة نصر أو المعادي أو المهندسين. أيام عملي في مصر الجديدة، كان إذا لم يقابلني في الصباح أسفل عمارتي، أجده يمشي على سور الحديقة التي يطل عليها شباك مكتبي. نفس القط الأسود، بنفس العيون الخضراء، ونفس التعبير اللامبالي. إذا كان اقترب مني في أي يوم من هذه الأيام طوال السنوات الماضية، لقلت إنه روح تحرسني، أو شخص أعرفه محبوس في جسد قط. ولكن كلا، لم يحاول القط الأسود أبدًا أن يقول لي شيئًا. مع الوقت أصبحت أبحث عنه كل صباح، وأقلق إذا لم أجده، وعندما أجده ينقبض قلبي، وأحاول أن أنظر في عينيه ولكنه يتجاهلني ويمضي.

استمر هذا النظام لحياتي طوال السنوات العشر الأخيرة، حتى بدأت مرحلة حبي للقطط من سنتين. ومنذئذ وأنا أهز رأسي للقط الأسود في الصباح محيية إياه كل يوم. وهو، شامخ كتماثيل القطط الفرعونية، لا يكترث بتحيتي ويمضي لأمور أهم.

بعد تفكير عميق أدركت أن أفضل حل للتخلص من القط الأسود هو اقتنائه. خيل إليّ أن ربما إذا نجحت في جعله مِلكي سيحبني ويفتح قلبه ويوضح لي دوره في حياتي. بدأت في رحلة بحث سرية (لأن أمي تكره القطط وما عادت ترغب فيهم بالبيت) عن قطي الأسود بعيونه الخضراء. قررت أن اسمه سيكون جعفر، وأخذت أتحدث عنه مع أصدقائي، وأضع صوره في كل مكان. رأيت الكثير من القطط السوداء، ولكن أبدًا لم يكن جعفر بينهم. خطر لي أن أجري خلفه في الصباح عندما أقابله وأمسك به، ولكن شعرت أن مثل هذا الفِعل قد يعطيه الانطباع الخاطئ عني، ويجعلني أبدو كخطافة قطط، ومن سيريد أن يفتح قلبه لإنسانة طاردته في الشوارع وهزت هيبته أمام القطط المشمشية والرمادية؟

ولكني اليوم استيقظت بقرار حاسم: أنا لا أريد أن أقتني جعفرًا أبدًا. سيعيش جعفر في خيالي كغاية، كرمز، كتذكِرة لي بكل أحلامي التي تتسرب من يدي عندما أطاردها، وتأتيني عندما أزهدها. لا أريده حبيسًا، بل حرًا ووحشيًا كأفكاري، حتى لو تجاهلني، حتى لو لم أعرف أبدًا سبب وجوده في حياتي.

قمت من سريري وأعددت نفسي لهذا الصباح ونزلت الشارع. كان عليّ أن أسير قليلًا حتى سيارتي. نظرت بجواري وإذ بقط أبيض يقفز فوق بركة مياه كبيرة بمنتهى الرشاقة والرقي، ليهبط على الجانب الآخر بدون أن يمس الماء، ويجلس في ثبات وثقة وكأن هذه القفزة العملاقة هي أقل ما يمكن أن يؤديه من أفعال مبهرة. ضحِكت وقلت في سري: «يا سلام؟ يعني خلاص، مش عايز تبل رجلك للدرجة دي؟» فالتفت لي القط وقال «مياو»، فقلت «مياو» وهززت رأسي محيية وأخرجت مفاتيحي. وقبل أن أهم بفتح السيارة أدركت ما حدث، فجمدت في مكاني والتفتّ ببطء: نعم، إنه قط، وأبيض، وقال لي مياو. أجلت النظر حولي فيما أراه

من الشارع. لا أثر لجعفر. نظرت للقط الأبيض، واقتربت بتمهل وقلت له مياو، فقال مياو، واقترب. ربت على رأسه ودلكت أسفل ذقنه، فقال مياو أطول من الأولى، وأدار رأسه في يدي يمينًا ويسارًا ليحصل على أكبر قدر من الدفء.

استدرت وركبت السيارة، وأدرت المحرك وأنا أعرف أنني لن أرى جعفر بعد اليوم. أبدًا.

طاقة نور

هناك نافذة صغيرة، «طاقة نور»، يمكنها ـ إذا وضعت الكرسي الطويل تحتها ـ أن تسند ذقنها على حافتها لترى السماء. لا جزء من السماء، ولا لون من السماء، ولكن السماء.. كلها. تجلس لساعات طويلة شاردة، مؤمنة بأنه بعد عدد معين من الساعات ستنطبع السماء على روحها.. كلها.

تراهم يحلقون هنا وهناك، متشابكين أو متفرقين، مقتربين أو مبتعدين. عادةً لا تستطيع التمييز بين ذهابهم وإيابهم. قد ترى حرف هنا، وآخر مشبوك فيه، الهاء تجر الراء، والراء تجر الباء، ثم تفلتها وتحلق وحدها. بعد الكثير من المراقبة أدركت أن لديهم رسالة ما، ولكن ليس لديهم خطة محددة. مثلها تمامًا. تراهم فرادى وجماعات، حروف أو كلمات، وتشفق عليهم لأن كل جهودهم معها تذهب سدى. تتمنى لو يقتربوا ويرتطموا بوجهها، فيسيل الكلام من النافذة منيرًا السماء وغاسلًا الروح.

. . . .

هناك كيان ضخم لزج، بني اللون، ليس له ظل، يزحف متلصصًا في أرجاء الكون، يطفئ في طريقه كل الأنوار، ويعتصر كل الآمال، ببطء وروية. لا داعي للاستعجال. كل سينطفئ في وقته. تراه بطرف عينها

يقترب. لا تنظر خلفها أبدًا. تشعر بالأنوار تنطفئ من حولها، الواحد تلو الآخر، ولكنها تعرف أن في اللحظة التي ستعترف فيها بوجوده، ستنطفئ. تركز بصرها على طاقة النور وتجلس منتظرة.

. . . .

هناك طائر أسود كبير، كبير، يعرف اسمها وتعرفه من طيرانه الأعرج، وعندما ينادي عليها ستضع الكرسي فوق الكرسي وتقفز.

. . . .

هناك نافذة صغيرة، «طاقة نور»، يتدلى منها حروف بنية، وريش أسود، وحلم بسيط، ونور خافت، وبعض السحابات الخاوية.

المرأة الخارقة

أنا أتمتع بقوى خارقة. أو ـ يعني ـ أحب أن أصدق أنني أتمتع بقوى خارقة. أحب أن أصدق أن بإمكاني التحكم في الأشخاص بإرسال رسائل ذهنية لهم. كانت هذه القوى الخارقة تنفعني جدًا مع سائقي الأجرة: أركز جدًا وأرسل للسائق رسالة ذهنية تأمره بألا يدخل في هذا الشارع، فلا يدخل في هذا الشارع. أحسب المسافة والنقود التي معي، وأرسل له رسالة ذهنية تأمره بقبول أي أجرة أعطيه إياها، فيقبل أي أجرة (أحيانًا يكون الإرسال ضعيفًا ـ حينها تراني أجري هربًا قبل أن يخرج السائق من السيارة ليتشاجر معي). وأحب أيضًا أن أصدق أنني أتحكم في قواي الخارقة: أرى أشخاصًا لا أريد أن أراهم فأطفئ مركز إرسال الرسائل الذهنية، فلا يروني، أو أجلس في مكان صامتة جدًا (أعرف أنه من الصعب أن تتخيلني صامتة جدًا ولكن ـ والله بجد ـ أنا أصمت أحيانًا)، كنت أقول: أجلس في مكان ما صامتة جدًا فينسى الناس وجودي (وهذه قوى خارقة أخرى: أن تكون غير مرئي). أنا حتى أرسل رسائل ذهنية للأشياء: أنظر إلى الهاتف مطولًا فيرنّ. أمسك الهاتف في يدي وأتمنى عليه أن يرن ويكون أنت، فيرن ويكون أنت. أقف خلف الباب في انتظار جرس الباب (يقف بجواري دائمًا قطي «كفتة» ـ أحب أن أصدق أنه يلتقط رسائلي الذهنية) ماذا كنت أقول؟ نعم... أقف خلف الباب، وعندما يدق الجرس أفتح وتكون أنت. أبتسم بفخر: أنا أتمتع بقوى خارقة ـ حقيقي بجد.

طق حنك

يقال إنه إذا وجدت نفسي غاضبة أو حزينة فجأة فلابد أن شيئًا صغيرًا قد حدث ضايقني أو أحزنني، ولكنني لم أنتبه له في حينه. قررت أن أراجع ما حدث في الأيام الماضية لأعرف ما هو الشيء الصغير الذي ضايقني وجعل ضيقي يتراكم حتى أكاد الآن أن أنفجر.

يوم الخميس بدأ جميلًا جدًا. بعد أمطار غزيرة أشرقت السماء، وبدا كل شيء منيرًا من الداخل. حتى أنا...كنت منيرة من الداخل. فلقد صَحِبتني. في المكتب أنجزت الكثير وخرجنا جميعًا للغداء سويًا، الفريق الإبداعي المكون من أربعة عشر شخصًا. مطعم على الطراز المصري سمعت عنه كثيرًا ولكن أدخله لأول مرة. جلست على أريكة على رأس الطاولة الكبيرة، واندسست بين الجالسين، وخلعت حذائي وثنيت رجلي اليسرى تحت مني، وأخذت في الكلام والضحك والتعليق. أحب زملائي في الفريق، وأستغرب من الطريقة التي تأقلموا بها عليّ في الشهور القليلة الماضية، فلم يعد يزعجهم كلامي المتواصل، أو غنائي بصوت عالٍ، أو تعليقاتي وضحكي وجنوني وحتى رقصي أحيانًا. رغم أنني لست أصغرهم (هناك ثلاثة أصغر مني في الفريق) ولكنهم يتعاملون معي على أني الصغيرة التي يأخذونها على قدر عقلها. لا أمانع. في الواقع أستمتع بحقيقة أنني

أحبهم ولكني لست مرتبطة بهم. أعرف في قرارة نفسي أنه يمكنني في أي وقت أن ألخص تجربة هذه الوظيفة، وأجمع أشيائي المتناثرة على المكتب وفي الأدراج، وأعود للعمل من المنزل بدون حزن كبير أو أسف عميق. لقد تجاوزت كل ذلك بعد أن تركت أول وظيفة أحببتها. حينها بكيت حتى لم أعد أقوى على فتح عيوني ولزمت الفراش. حتى الآن أذهب أحيانًا لزيارتهم ولكن بدون حنين أو مرارة أو أسف. أشعر أنني أزور مدرستي القديمة، وأعرف أنني تجاوزت مرحلة المدرسة.

الأكل جميل، وعلى الرغم من أن الطبق الذي اخترته لم يعجبني، فلقد جربت كل أطباق زملائي. يُطلق عليّ أخي وابن خالتي لقب «رحاب هات حتة»، لأني أحب دائمًا أن أجرب أطباق الآخرين. كل شيء مريح ومرح وهادئ. أشعر برغبة في النوم وسط رقرقة الضحكات والكلمات المتناثرة هنا وهناك. تنجدني القهوة وتعطيني نَفَسًا ثانيًا. وفجأة يقول مديري إنه سيجلس معي يوم الأحد ليناقشني جديًا في العديد من المواضيع لأنه غير راضٍ عن عملي. أتوتر. هذه هي اللحظة التي بدأ فيها الغضب.

بعد الغداء والمشروبات بدأ الناس في الانصراف. بقينا أنا وزميلتين لنتكلم، وقلت إنه إذا لامني المدير على هذا وذاك سأغضب فعلًا. تكلمنا حتى أذن المغرب فعدنا أنا ومها إلى منزلي لنغير ملابسنا ونرتدي الأسود. لدينا واجب عزاء. توفى خال صديقنا.

ونحن في الطريق أقرر فجأة أن أقول لمها على كل ما يوترني، وأرتاح عندما أجدها تفهم ما أريد أن أقوله بدون أن أقوله كله. نذهب لدار المناسبات وننتظر سامية وعمرو أمام المسجد. عندما يحضران يخرج خالد من قاعة العزاء ليسلم علينا. لا أستطيع أن أرسم على وجهي الحزن أو الأسف. لم أر خالدًا منذ فترة، فأبتسم ابتسامة واسعة وأصافحه

بحرارة. تعتذر سامية لأنها تلبس البني، وأقول إنني ألبس كنزة أعارتني إياها مها لأني لا أملك شيئًا أسود دافئًا، وتقول مها إنها ستتجمد لأن القميص الأسود الذي ترتديه قميص صيفي. يضحك خالد. أشعر برغبة شديدة في أن أحتضننا جميعًا حضن «تفعيص» لأني أحبهم جدًا وأحب كيف نكون سويًا. أفتقد سارة وأسامة أكثر لأنهما لم يستطيعا الحضور. نتكلم قليلًا ثم يعود هو وعمرو لقاعة الرجال، ونذهب نحن لقاعة السيدات. أقول لسامية ومها إنني أعرف والدة خالد. ندخل فأجدني لا أستطيع تمييزها. ندخل فلا نسلم على أحد ونجلس في إحراج.

تقول مها: «شكلنا وحش موت! دخلنا كده وماسلمناش على حد!» تقول سامية: «الست اللي قاعدة جنب الباب دي شكلها هي اللي بتاخد العزا. تعالوا نقوم نسلم عليها».

أقول: «لأ استنوا نسلم على مامت خالد».

نجلس في حيرة.

تقول سامية: «طب نسأل مين مامت خالد؟».

أقول: «طب اسألي اللي جنبك...».

تقول مها: «افرضي قالت لك خالد مين!».

تقول سامية: «طب إنتي عارفة اسم مامت خالد؟».

أقول: «لأ مش عارفه! هعرف اسم مامته ليه؟! بصوا هي يمكن دي أو دي».

نعاين السيدتين. كلتاهما تشبهان خالدًا!

تقول سامية: «قومي إنتي يا رحاب اسألي. هزي طولك كده!».

أقول باستغراب: «إشمعنى أنا اللي أهز طولي؟!».

تقرر سامية: «علشان إنتي قصيرة ولو هزيتي طولك محدش هياخد باله».

أدير عيني في محجريهما وأمط شفتي في ابتسامة مغتاظة. أنظر حولي مرة أخيرة أحاول أن أجد والدة خالد بلا جدوى. أقوم فأسأل عنها السيدة التي تجلس بجوار الباب فتأخذني لإحدى السيدتين اللتين كنا نشك فيهما. أسلم عليها وتأتي سامية ومها، وتقول والدته لسامية: «أنا كنت باشبه عليكي من ساعت ما دخلتي بس قلت إيه اللي جابك! قصدي يعني عرفتي منين!» نضحك وتضحك وتقول «خلوا بالكو من خالد بس» فأقول إننا دائمًا «مخليين بالنا منه».

نعود إلى مقاعدنا. أدرك فجأة أنني أرتدي نفس الجاكيت والبنطلون للذين ارتديتهما طوال أيام العزاء بعد أن توفى عاطف زوج ابنة عمتي. أسمع مريم ذات السنوات الخمس وهي تقول باستنكار شديد: «إنتي لابسة نفس اللبس تاني؟!»، وأسمع فريدة ابنة عاطف ذات السنوات الخمس أيضًا وهي تقول: «إنتي كمان؟؟ إنتي كمان لابسة أسود؟»، وأشعر برغبة في الخروج فورًا وشراء أي شيء أحمر.. أي شيء فيه حياة. هذه هي اللحظة التي بدأ فيها الحزن.

مها تجلس في الوسط. بوجه جاد جدًا أميل على مها لأقول لسامية: «عاوزة وصفة الشوربة». تفغر سامية فاها وتبرق عينيها، وتطرق مها وتأخذ في الضحك مختبئة في شعرها الطويل، وتفرك سامية جبينها ويحمر وجهها وهي تحاول جاهدة ألا تضحك بصوت عالٍ.

«أنا باتكلم بجد. عاوزة وصفة الشوربة. بتضحكوا على إيه؟ هأنسى.. لما أخرج من هنا هأنسى».

تهزان رأسيهما في أسف لحالتي وتقرر مها أنني مصيبة وفضيحة.

يقول المقرئ «صدق الله العظيم» فنسلم على والدة خالد مرة أخرى ونخرج. نقف قليلًا معه ونستفهم منه كيف توفى خاله، ونسأله إذا كان يرغب في أن يذهب معنا لاحتساء القهوة في أي مكان قريب فيعتذر ونمضي.

نتجه للكوربة. ألاحظ أن العديد من عمارات شارع بغداد قد أُعيد طلاؤها. ينعكس عليها النور من مصابيح الشارع فتبدو منيرة جدًا. أشعر أنني في فيلم قديم أو صورة «سيبيا». أمشي بتمهل وتغني مها ويسبقنا سامية وعمرو. أريد أن أسير قليلًا في الكوربة ولكن لا أريد أن أكون وحدي ولا أريد أن أكون معهم. على أي حال أكره الكوربة وهي مزدحمة هكذا ليلة الخميس. قضينا وقت ظريف في «لو شانتي»، تكلموا هم وضحكنا كثيرًا. كان من الممكن أن أستمتع بالأمسية لو كنت فقط استطعت أن أزيح جانبًا هذا الحزن الذي بدأ يتحكم فيّ. خرجنا من المطعم ووقفنا أمام بعض المحلات. دخلوا محلًا للأثاث وتبعتهم. ثم أحسست بضيق نَفَس فخرجت في الشارع. وقفت قليلًا ثم تذكرت أن الكوربة مشهورة بأنها مكان لالتقاط الفتيات، فرجعت إلى الوراء ووقفت بجوار الرصيف أنظر ولا أرى. يجب أن أذهب لزيارة ابنة عمتي. لا يمكنني تفاديهم للأبد. دي تصرفات عيال. لازم أكبر بقى. بس مش قادرة. مش قادرة أدخل البيت. مش قادرة حتى أكلمها في التليفون وأسمع رنة الحزن المُستسلم في صوتها.

لا يمر يوم لا أفكر فيه في عاطف، فعلى الطريق الدائري الذي أسلكه للعمل كل يوم غالبًا ما يكون هناك رادار ولجنة. آخر مرة الصيف الماضي عندما سحبوا رخصتي وحرروا لي مخالفة سرعة على الدائري كان عاطف

هو الذي أعاد لي الرخصة. وعند عودتي من الإسكندرية الأسبوع الماضي سحبوا رخصة قيادتي عند مدخل الإسكندرية، وسحبوا رخصة السيارة في وسط الطريق. تملكني حزن هائل مؤلم. شعرت أنني أريد أن أجلس على جانب الطريق، أهيل التراب على وجهي وأبكي بحرقة. فكرت أن أحاول أن أشرح للضابط: «شوف حضرتك..ماينفعش تسحب الرخصة.. عاطف مات.. ودلوقتي مين هيجيبهالي؟ بجد ماينفعش.. أنا مش هأعمل كده تاني بس من فضلك ماتسحبهاش».

تخرج مها من محل الأثاث ويتبعها سامية وعمرو. أريد أن أركض بأقصى سرعة أو أنام لبضعة أيام. أدفع يدي في جيوبي أكثر وأسير في صمت. نسلم على بعض ونفترق وأعود للمنزل. لا أتذكر كيف مضى الوقت حتى نمت. قرأت قليلًا في «قميص وردي فارغ» لنورا أمين وابتسمت عندما وجدتها تشكو من ارتداء الأسود والذهب والكعب العالي، وتذكرت شكوى لطيفة الزيات من الكورسيه. معضلة المرأة الحديثة. لماذا لا يتحدث أحد عن الجوارب «الفيليه» الشفافة؟ ربما عليّ أن أذكرها في القصة القادمة.

ويوم الجمعة استيقظت مبكرة. حلمت حلم مقبض للغاية. حلمت أنني في لبنان، أجلس في سيارة ويسألني عسكري عن اسمي، ومن اسمي يعرف ديانتي فيصوب مسدسه لرأسي ويضغط الزناد، وأن آخر شيء قلته لنفسي هو: «لا تقلقي»، ثم همست بالشهادتين وأظلمت الدنيا. أعرف أن هذا مشهد من فيلم تسجيلي عن لبنان وفيروز اسمه «أحببنا بعضنا جدًا» شاهدته في مهرجان الفيلم الأوروبي منذ بضعة أشهر. ولكن في المشهد تحكي السيدة أنهم قتلوا أخاها وهي بجواره في السيارة. وبعد أن انتهت من حكايتها تحول المشهد إلى لقطات للبنان أثناء الحرب وفي الخلفية أغنية فيروز «صباح ومسا»، وأخذت أنا في البكاء حتى نهاية الفيلم،

وأخرجت مناديل ورقية تقاسمتها مع المرأة الجالسة بجواري التي لا أعرفها. عندما استيقظت من الحلم شعرت بالإشفاق على نفسي لأن آخر شيء قلته هو «لا تقلقي». أسيكون هذا هو فعلًا آخر ما أفكر فيه؟ ارتحت إلى حد ما لأني استطعت أن أقول الشهادتين. اختلفت الأراء حول الدين والله، ولكني أحب الله جدًا وأعرف أنه يحبني جدًا، لذلك لا أهتم بأغلب هذه الآراء.

ساعدت أمي في ترجمة مقالة. أحاول أن أقاوم تعب عميق يسكن جسمي. كل شيء يؤلم. تمددت أقرأ في السرير لساعتين حتى نمت مرة أخرى. انتهيت من «القميص الوردي» وبدأت «الباب المفتوح» للطيفة الزيات. استيقظت في الخامسة لأجد أن كل الناس اتصلت بي. رددت على مكالمة واحدة وأجلت الباقي لبعد قيامي من السرير. أعود للقراءة. منذ فترة لم تستغرقني رواية هكذا. أريد أن أكتب ولكني متعبة للغاية. تقول أم البطلة في «الباب المفتوح» إن «جسمها مهزوم» فأجد أن هذا أفضل وصف لحالتي. أدركت أنني نسيت أن أكتب شيئًا في قصة «أنا والضباب وهواك»، وأخذت أفكر في جدوى إضافة بضعة سطور للقصة.

يقترح سامية وعمرو السينما، وتقترح مها مسرحية في الهناجر، وأعتذر عن القيام من السرير. يمر اليوم في القراءة وتفادي الاتصالات. لا أستطيع النوم قبل أن أنتهي من «الباب المفتوح».

والسبت استيقظت في السادسة صباحًا فجأة، لأجد صديقًا لنا في الخارج لم يتصل بي منذ أن سافر قد اتصل بي في الرابعة صباحًا.. من البلاد الباردة! تتسارع ضربات قلبي، ويبرد جسمي كله في لحظة، وأفكر في كل الاحتمالات المرعبة. أقوم لأتفقد البريد الإلكتروني. لا شيء. أرسل له رسالة. لا يرد. أعود لنوم قلق. من المفروض أن أذهب لزيارة

صحراء المماليك اليوم ولكني متعبة. قررت أن أنام حتى ولو كان نومًا قلقًا. تفتح أمي باب غرفتي وتترك «كفته» على السرير لأنها لا تستطيع أن تقوم بأي شيء في المنزل لأنه يجري حولها في كل مكان. نعود أنا و«كفتة» للنوم. أستيقظ وأبدأ في القراءة. تفتح أمي الباب: «أنا عارفة إنك مستمتعة بالقراية وكل حاجة، بس ممكن تنشري الغسيل وأي كلام أي كلام أي كلام». أتوقف عن السمع. هذه هي اللحظة التي بدأ فيها الغيظ.

أحاول أن أخطط لليوم: سأذهب لمصفف الشعر، ثم أشتري رمل للقط، وربما أصلحت الساعة، أو سأذهب لأمشي في حديقة الأزهر، أو سأذهب للمقهى الذي أحبه وأكتب، أو سأذاكر، ربما أقرأ قليلًا. من المؤسف أن يكون أمامي يوم طويل هكذا لنفسي ولا أفعل فيه شيئًا مفيدًا.

أماطل. لا أريد أن أقوم من السرير. يؤلمني فكي بشدة. كنت أجز على ضروسي طوال الليل. في مثل هذا الوقت العام الماضي خلعت كل ضروس العقل. أبتسم وأنا أتذكر سامية وهي تقرصني في ذراعي وتصيح في أذني: «اصحي يا رحاب! اصحي يا رحاب!! يا رحاب اصحي بقى!!»، وأمي وخالتي وهما تستدرجانني في الكلام وأنا تحت تأثير المخدر: «ها وبعدين؟».

أقوم وأنا أغالب الصداع. أريد قهوتي حالًا. أتذكر أنني كتبت جزءًا من قصة طويلة أثناء النوم. أحاول أن أسترجعه ولكن أفشل. أغتاظ. أركز أكثر. أتذكره! في المطبخ أجد القهوة التي أحبها قد نفدت. أغتاظ. أفتح عبوة زبادي، أجد طعمها في غاية المرارة، أغتاظ. طلبت من البقال ألا يرسل هذا النوع ولكنه أرسله. أقرر أن أستحم. أدخل الحمام وأخلع ملابسي، لا أجد صابون، أغتاظ. ألف المنشفة حولي وأخرج لأحضر الصابون،

أدخل، أنزع المنشفة، لا أجد كريم الشعر، أغتاظ. ألف المنشفة حولي وأخرج مرة أخرى. أبحث عنه في كل مكان. يبدأ صوتي في الارتفاع. لا أجده. أغتاظ. أدخل الحمام وأبدأ في الاستحمام. اللوفة طرية! أكره ذلك! أكره اللوف الطري! مقرف مقرف مقرف! كيف يتمكن أحد من الاستحمام بلوفة طرية؟! أبدأ في البكاء تحت الدوش. لماذا يتآمر الجميع على حرق أعصابي؟

أخرج من الحمام، وأرتدي ملابسي، وأجلس في غرفة المعيشة أمام التلفاز المغلق. أقرر أن أجلس لمدة خمس دقائق دون حراك لأمشط شعري في صمت وهدوء. أرفع رأسي فأرى كتاب يحملق فيّ من على أحد الرفوف: «علاج التقلبات المزاجية». أغتاظ: أنا لا أعاني من تقلبات مزاجية! أنا ضحية لتصرفات من حولي! أقرر أن أفكر في شيء مبهج. أنظر من النافذة فأرى سحابة صغيرة ممتلئة تطفو بتمهل. آخذ نفس عميق وأبتسم. أمنية حياتي أن أجلس على سحابة، سحابة وردية كغزل البنات. عبرت عن هذه الأمنية مرة أمام شخص ما فقال إنه من المؤكد أنني سأسقط، فلا أحد يمكنه الجلوس على السحاب. ذكرني بمستر جراد جرايند في قصة تشارلز ديكنز «أوقات عصيبة» وهو يصرخ في التلاميذ الصغار ويقول: «الحقائق! الحقائق! التزموا بالحقائق!». كم كرهت مستر جراد جرايند وكرهت ذلك الشخص.

لا أدري لماذا درسوا لنا تقريبًا كل قصص تشارلز ديكنز في المدرسة. هل كانوا يريدون لنا أن نفهم «بالذوق» أننا أفضل من غيرنا؟ إننا مهما كانت طفولتنا تعيسة فنحن أفضل من «دافيد كوبرفيلد» الذي توفى والداه وتحكم فيه الجميع واضطر أن يتعامل مع شخص لزج «متواضع» ذو يد باردة وابتسامة صفراء مثل «يوريا هيب»، أو أفضل من «أوليفر تويست» (اليتيم أيضًا) الذي استغله المجرمون، أو أفضل من بيب (يتيم آخر) الذي

تلاعبت بعواطفه «ستلا» و«مسز هافيشام» المتعفنة. ناهيك عن سيدني كارتون الذي أبكي كلما شاهدته في فيلم «قصة مدينتين» وهو يساق إلى المقصلة بدلًا من الآخر الذي لا أتذكر اسمه. لماذا فرضوا علينا كل هذه المآسي؟! لم أصدق نفسي عندما وجدت أن مقرر الرواية في عامي الثاني بالكلية يشمل «أوليفر تويست»! تاني؟! أوليفر تاني؟! من كل أمهات الأدب الإنجليزي لم يجدوا غير أوليفر؟! أغتاظ وأنا أتذكر ذلك فأتوقف عن تمشيط شعري وأقوم قبل مرور الدقائق الخمس. والله العظيم لا أنا نازلة وقاصة شعري! أحاول دائمًا أن أنكر أي علاقة بين قصي لشعري وتقلباتي المزاجية، ولكني أعرف نفسي أفضل من ذلك. تقول هلا: «قصي شعرك تغيري حظك». جربت ذلك أيضًا. لم ينفع.

ماذا أفعل بنفسي الآن؟ أنا مغتاظة وغاضبة وحزينة. وكل شيء يؤلم.. كل شيء.

أعود للسرير وأدفن رأسي بين الأغطية استعدادًا لماراثون نوم جديد. آه يا براح عمال بيضيق[1]!

(١) من أغنية «ساح يا بداح» لمحمد منير.

أعماق أعماقي [1]

اليوم أحمل حقيبة كبيرة من الجلد بنية اللون، عليها نقوشات إسلامية بدرجات مختلفة من البني. اشتريتها من سوق الحميدية بدمشق. بعد جدل طويل حول السعر أعطاني البائع الحقيبة بتخفيض مذهل وقال وهو يلفها لي: «إذا كانت مصر أم الدنيا، فسوريا أبوها!» وضحكنا طويلًا.

في حقيبتي اليوم أحمل التالي: نوتة صغيرة أكتب فيها كل وأي شيء. أشتري منها واحدة عند بداية كل عام جديد. أسجل فيها النقود التي أنفقتها، وأحسب ثمن الأشياء التي اشتريتها، وما لي وما علي من نقود. أحتفظ فيها بقصيدة أحبها جدًا رغم أنها حزينة جدًا. أكتب فيها مصطلحات إنجليزية وترجمتها العربية أو العكس. أكتب فيها الأعمال التي عليّ أن أنجزها والمشاوير التي لا تنتهي (تصوير كتب، أكلم فلان، أبعث إيميل لعلانة، تنظيف جاف... إلخ). أدون مواعيد وعناوين حقيقية وإلكترونية. كلمات من أغاني. أسماء كتب. أسماء مغنين وألبومات. جمل وعبارات من أفلام ومسرحيات. قائمة بأشياء أريدها. صفحة كتبت لي فيها سامية وأخرى كتبت لي فيها سارة. والكثير من قصاصات الورق اللاصقة الملونة. أحبها جدًا هذه القصاصات ولدى مجموعة كبيرة منها

(١) فكرة القصة مأخوذة عن تدوينة لدينا الهواري (dinahawary.blogspot.com).

بمختلف الألوان والأشكال، أحبها إلى قلبي الخضراء الفوسفوري على شكل وردة.

أحمل قاموس المورد الإلكتروني (عربي-إنجليزي-فرنسي) وقلمين أزرق وقلم أحمر وآخر رصاص وماركر برتقالي اللون ذو سن عريض لزوم التصحيح والمراجعة. ساعة يد توقفت عقاربها (تنقلت هذه الساعة من حقيبة تلو الأخرى على مدار الشهر الماضي أملًا في أن أجد نصف ساعة خلال يومي لأذهب للساعاتي ليركب لها بطاريات جديدة. توقفت عند الخامسة والنصف. أنا أحب رقم خمسة، ولكن لا أعرف ما هي دلالة النصف). أحمل مناديل ورقية وأخرى مبللة. زبدة كاكاو بطعم الفراولة (أنهي أصدقائي عن قرض أظافرهم أو عض أصابعهم ولكني آكل شفتي كثيرًا. لا أظن أنهم يعرفون ذلك عني). مجلة g-mag الصغيرة (لا تفارق حقيبتي. بحبها أوي!). مشغل إم.بي. ثري وسماعات. عدة خياطة صغيرة للغاية (يمكن حاجة تتقطع!). مفاتيح منزلي في سلسلة نحاسية مكتوب على وجه منها «بركة» وعلى الآخر «سلامة». مفتاح سيارتي في سلسلة فيها عروسة «بابل جم» مكتوب على الفستان الذي تلبسه Party Animal (مدمنة حفلات). مرآة صغيرة وأحمر شفاه يلائم ما ارتديته اليوم (لم أضع أحمر الشفاه قبل نزولي للعمل ولكني أحمله معي دائمًا تحسبًا لأي طارئ (الأسبوع الماضي طلبوا مني في العمل أن أضع طبعات كثيرة لشفتي على ورقة كبيرة بيضاء ليستخدموها في إعلان!). لبان بدون سكر. أقراص للصداع. قطرة للعين. كريم للجروح (أجرح نفسي كثيرًا بالأوراق وصفحات الكتب). زجاجة عطر (نادرًا ما أغير عطري المفضل وأفتقده أحيانًا خلال اليوم). هاتفي المحمول وسماعته (أنسى كل يوم أن أتركها في السيارة). نظارة الشمس ملقاة في قعر الحقيبة بدون غطاء (لأنه من

المفروض أيضًا أن أتركها في السيارة!). حافظة صغيرة جدًا بها بطاقات عملي، وبطاقاتي الشخصية ذات التصميم الذي أثار جدلًا (قال البعض إن التصميم يلائم شخصيتي جدًا، «ده إنتي خالص!»، بينما قال البعض الآخر إنها تصلح بطاقة دعاية لصالون تجميل!).

أما حافظتي فلونها أزرق سماوي هادئ وعليها زهور قليلة ودقيقة من الخيوط الوردية والصفراء الفاتحة. أضع فيها أوراق نقدية بفئات مختلفة أرتبها في جيبين: الجيب الأول فيه الأوراق من فئة الخمس جنيهات فيما فوق، والجيب الثاني للفكة الورقية. في مكان البطاقات بالحافظة أضع رخصة قيادتي ورخصة السيارة والرقم القومي. أضع بطاقاتي البنكية وعضوية المكتبة في المركز الثقافي الفرنسي وبطاقة تخفيض لم أستعملها سوى ثلاث مرات. أضع المزيد من بطاقات العمل وبطاقاتي الشخصية (كان الهدف من الحافظة الصغيرة تفريغ الحافظة الكبيرة من كل البطاقات ولكن أنسى دومًا القيام بذلك. وعندما أفرغ فعلًا الحافظة الكبيرة من البطاقات أنسى الحافظة الصغيرة في حقيبة ما!). أحمل بطاقات العمل الخاصة بأصدقائي وأقاربي. بطاقة طبية من طبيب الأنف والأذن والحنجرة بها قائمة بالأدوية الممنوع عليّ تناولها ومكتوب فيها: «عند حدوث أي ارتفاع في درجة الحرارة يجب استشارة الطبيب فورًا ـ ممنوع منعًا باتًا الاشتراك في ضرب النار»(!)

في حافظتي أيضًا قطعة قماش صغيرة جدًا من الحطة الفلسطينية وزورق ورقي متناهي الصغر صنعته لي مها. بطاقة طبيب الأسنان وصور لي ولوالديّ ولأخي. فواتير وإيصالات. قصاصة من جريدة تتحدث عن كتاب. بطاقة ولاء من «ديوان» (أتعمد دائمًا أن أضيعها. لا أحتمل فكرة وجود ورقة تثبت أنني أنفقت ألف جنيه في شراء الكتب! أعرف أنني

أنفقت أكثر من ذلك كثيرًا خلال العامين الماضيين ولكن... ورقة تثبت ذلك؟! لا.. لا يمكن أبدًا!). قصاصة ملونة صغيرة كَتبت لي مها عليها اسمي ولونته وكتبت حوله: «بحبك يا مجنونة – ملكة متوّجة والله». وعلى جيب داخلي في حافظتي ملصق صغير مكتوب عليه: «لا تكبري أبدًا».

عناوين الصحف

أنزل الدرج مسرعة. فرصتي الوحيدة لتفقد عناوين الصحف هي تلك الثواني التي يستغرقها نزولي الدرج. أقرأ العناوين من الصحف الملقاة أمام أبواب جيراننا في الطوابق الأربعة. لدينا جار وفدي، وآخر ناصري، وآخر يفضل الأخبار على الأهرام، وجار طبيعي يقرأ الأهرام.

أمام باب جاري الناصري وجدت العربي مقلوبة على ظهرها فأكملت نزولي. أمام باب جاري الأخباري قرأت بالبنط الأحمر العريض: «جماهير الشعب قالت كلمتها في الاستفتاء ـ مشاركة شعبية كبيرة في الاستفتاء علي تعديل المادة ٧٦ من الدستور شملت كل المحافظات ـ الاستجابة الجماهيرية أسقطت دعوة بعض أحزاب المعارضة للمقاطعة». أمام باب جاري الأهرامي قرأت: « الشعب يرد بقوة على المطالبين بالمقاطعة وعدم أداء الواجب الوطني». أمام باب جاري الوفدي قرأت: «فضيحة الاستفتاء» وحسب، بعد الصفحة الأولى السوداء التي لاحظتها أمس حدادًا على «نكسة ٧٦» على حد تعبيرهم.

في الطريق استمعت إلى جاهين يلقي «على اسم مصر» محاولة أن أفك معانيها. اكتشفت أنني لا أفهم الجزء الخاص بحتحور المنتقمة الدموية الحانية.

أصل إلى البناية التي أعمل بها. في المصعد يجلس عامل المصعد على مقعد صغير منكبًا على صحيفة أخبار الحوادث ويقرأ باهتمام مقال عنوانه: «اعترافات: طالبة الدبلوم فتاة ليل محترفة».

الشباب الدائم للألوان

تنتقل بخفة بين المطبخ ودكان الورد والشرفة والسحابة وغرفة المعيشة. وراءها تهرول قصاصات من الورق، ورائحة خبز دافئ، وصوت العصافير وهي تشدو بنشيدها القومي. يشدها من ذيل فستانها ويخرجها من دوامتها ليسأل: «لماذا لا تشيخ الألوان؟».

تنهدت. وضعت جانبًا غربال الأحلام ولملمت أطراف جناحها وجلست القرفصاء على كتفه، وأحضرت البطة لتطعمها، حتى لا تتوقف عن ممارسة حياتها في خضم كل هذا الكلام. «يا عزيزي، الألوان لا تشيخ أبدًا لأنها تعرف نفسها جيدًا؛ تعرف ماذا تستطيع أن تفعل، وماذا تريد أن تكون».

يطرق ويتوسد خده كفه. «أنا لا أفهمك».

«لماذا؟ اسمعني: يهدر الإنسان عمره وهو يحاول أن يعرف ماهيته، وهو يحاول أن يبحث عن طريقه، وهو يحاول أن يكون شيئًا آخر. ولكن هذا الموضوع محسوم بالنسبة للألوان. أجل، حتى الألوان الباهتة، أو تلك المشتقة من درجات أخرى، ترى نفسها على حقيقتها، وتفهم دورها جيدًا، وتعرف من بالضبط يستطيع أن يبصرها، ومتى يمكنه ذلك».

«هل من الطبيعي أن أتمنى أن أكون لونًا؟»

«بالتأكيد! أنا عن نفسي أتمنى أن أكون لونًا أخضر بطعم الشمام المثلج!».

نظر لصورته في عينيها وقال: «أنا محتاج أوي أزغزغك دلوقتي».

جمال الدنيا وحقيقة الأشياء

يقول تامر إنه يحبني فأصفعه. كان صيفًا رائعًا!

كلما تذكرت ذلك الصيف أشعر أنه حتمًا استمر لأكثر من مجرد ثلاثة أشهر. كانت أيامنا كلها متشابهة ولكن كلها مختلفة. صباحًا أذهب إلى سماح: تسكن في البناية المجاورة بالطابق الأرضي ولديهم شرفة تطل على الشارع (سيظل هذا الشارع هادئًا وكسولًا، حتى بعد افتتاح المركز التجاري الضخم فيه بعد خمسة عشر عامًا من ذلك الصيف البعيد، وتحويل كل الشقق التي كنا نسكنها إلى محلات لإكسسوارات الموبايل ومقاهِي إنترنت). نلعب بعرائسها وآتي أنا بالأقمشة اللازمة لصنع ملابس للعرائس بأسلوب حياكة لا يتغير كثيرًا: نلف القماش حول العروسة ونثبته بدبابيس. مرة نلفه حول وسطها، مرة حولها كلها، مرة حول يديها وساقيها كالمومياء، مرة حول رأسها. ومرة قماش أبيض فيصبح فستان زفاف، مرة أسود فيصبح على العرائس حضور مأتم، ومرة مزخرف بنقوشات لامعة فيكون وقت الاحتفالات والسهرات.

نزهد في العرائس فنبدأ حفلة الشاي (سأتذكر حفلات الشاي تلك كلما قرأت «أليس في بلاد العجائب» وأدرك أن حفلاتنا لم تكن مختلفة كثيرًا عن تلك التي أقامتها أليس والأرنب وصانع القبعات المجنون).

لدى سماح طقم شاي وردي صغير من البلاستيك. تأتي بزجاجة ماء باردة وآتي أنا ببسكويت «ماري». نملأ إبريق الشاي الصغير بالماء ونتبادل صب الشاي لبعضنا. نكسر بسكويت «ماري» قطع صغيرة لنتمكن من أكله في أطباق الحلوى الدقيقة. وأحيانًا يكون هناك عنب، فنضع عنبة واحدة في كل طبق ونجلس هكذا في صمت نحتسي الماء ونأكل العنب ونتأمل أي وكل شخص (أو شيء) يمر أمام الشرفة.

تريد سماح أن تصبح مضيفة جوية عندما تكبر، فتصنع قبعة من الورق مثل قبعات المضيفات وترتديها في حفلات الشاي تلك، وأقول إنها يجب أن تكون مضيفة فعلًا لأن القبعة تلائمها جدًا. أريد أن أمتلك مطعمًا عندما أكبر، فاقتني طقمًا من أواني الطهو الدقيقة وموقد صغير وثلاجة أصغر، وأنهمك في ضرب الماء ببعضه وأصنع العديد من الأطباق المائية الشهية التي تحتسيها سماح فورًا، وتُثني عليها بحرارة وتقول إنني يجب أن أمتهن الطهو لأن «نَفَسي حلو». تعوم بطوننا من كثرة الماء في أشكاله المتعددة فأذهب لمنزلي للغداء.

وفي تمام الخامسة نتقابل مرة أخرى مع باقي مجموعتنا (كنا أكثر من عشرين ولدًا وبنتًا). منذ ذلك الصيف والساعة الخامسة هي من أحب أوقات اليوم إلى قلبي. أحب الغروب جدًا، ولكني أحب أكثر كيف يبدو العالم قبل الغروب بساعتين. نمر أنا وأخي على سماح وأختها بسمة، ثم نذهب إلى «ميني ماركت محمود» لنأتي بالخيرات: جيلي كولا (حلوى جيلاتينية بطعم الكولا)، آيس كريم كونو (آيس كريم في مخروط من البسكويت)، لوليتا (ماء مجمد مضاف إليه لون صناعي)، دولسي أب بالمانجو (نسخة مطورة من لوليتا وأكبر حجمًا)، لبان سحري (يغير لونه عندما تمضغه)، لبان النهضة (الذي يكسر الفك ولكن يصنع بالونات كبيرة جدًا) وكل ما هو ملون ومقرمش ومثير لإزعاج مَن حولنا وقلق أهالينا.

نعود إلى شارعنا فنجد مجموعتنا قد اكتملت. نمضي بعض الوقت في أنشطة متفرقة: سباقات عدو (لمسافة خمسة أمتار!)، مباريات كرة قدم (يخسر فيها فريق البنات «الزهور» أمام فريق الأولاد «النمور» ٤ ـ ٢٠.. في الشـوطين!)، سباقات دراجات، استغماية، كهربا، صيادين سمك.. إلخ. يا الله! عندما أفكر الآن في حجم الضوضاء التي كنا نصنعها أشكر في سري كل سكان شارعنا على تحملهم بل وتجاهلهم لنا، وأعاهد نفسي على ألا أنزعج أبدًا من صوت أي طفل يلعب في الشارع.

نجوع فنشتري الذرة المشوي ولكن لا نشبع فأقرر أن على الأولاد أن يأتوا لنا بشيء نأكله. يختفي الأولاد لبعض الوقت، ويرجعون بالكثير من ثمرات المانجو من حديقة في آخر الشارع سافر صاحبها العجوز لقضاء الصيف مع ابنته. نفرح بالصيد الثمين ونقتسمها بيننا ونصطدم بالحقيقة «المُرة»: لم تنضج المانجو بعد. نذهب لميني ماركت محمود لنشتري المزيد من الآيس كريم الكونو ليمحي المرارة. أعتقد أن هذا الصيف كان أول مرة يظهر الآيس كريم الكونو في مصر لأننا كنا نلتهمه بكميات مهولة وكل مرة يملؤنا العجب من هذا الاختراع اللذيذ.

في المساء أتخلى مؤقتًا عن حلم الطهو وأتجه لعالم الشهرة، فأتقمص شخصية المذيعة ويتقمص الكل شخصيات مختلفة، وأُجري لقاءات معهم كلهم بدون استثناء، على الرغم من عدم موافقتي على كل الشخصيات التي تقمصوها: مجرم محترف يدلي بتصريحات من داخل عالم الجريمة، «مِعَلِّمة» من زنقة الستات بالإسكندرية تشرح لي كيف ترتب الترتر والخرز بمتجرها، راقص باليه يعاني من مشكلة في جواربه، راقصة في ملهى ليلي تريد أن ترقص بأسلوب جديد وهي تضع زعانف وعوامة، قائد غواصة، عازف بيانو، ضابط مخابرات، وشحاذ.

ويأتي علينا وقت يسافر أغلب أصدقائنا للمصيف ويخلو علينا الشارع، فأُخرج عدة الطهو وأجلس على سلم بناية سماح. تأتي سماح بالماء والعنب هذه المرة، وتأتي أمل بصابون سائل (حتى يومنا هذا لا أعرف لماذا أحضرته!). أخلط الماء بالصابون استعدادًا لإضافة باقي المقادير الوهمية. وبينما نحن جالسون هكذا ينزل شريف من بيته ويجدنا منهمكين في الطهو. كان شريف أكبر منا بسنتين: طفل طويل جدًا بالنسبة لسنه، طيب ورقيق مع البنات فيعاملنا كلنا كأخواته، ولكنه يفعل كل شيء بسرعة ويبدو دائمًا في عجلة من أمره. يتهلل لرؤيتنا ويسأل: «بتعملوا إيه يا بنات؟»، وقبل أن نتمكن من الرد عليه يستنتج ما الذي نفعله: «بتطبخوا؟ بتطبخوا إيه؟». كنا لا نريد أن نكشف له سر فن الطهو الخفي فأخذنا نفكر في شيء آخر نقوله له، ولكن قبل أن نصدر أي صوت ينظر شريف فيجد العنب ويستنتج طبق اليوم: «عصير عنب؟» هنا انحلت عقدة لسان أمل: «أيوه، عصير عنب»، فيأخذ شريف كوب محلول الصابون ويجرعه على دفعة واحدة! نرى عيناه تتسعان من خلف الكوب ويملؤهما الفزع ونحن مذهولون تمامًا وفاقدون النطق! يضع شريف الكوب على السلم ويهرع صاعدًا إلى شقته. نجلس أنا وأمل وسماح على السلم يعذبنا تأنيب الضمير لأننا السبب في قتل صديقنا الرقيق بمحلول الصابون. تتنهد سماح وتقول: «دلوقتي مين اللي هيبقى الحكم في الماتشات لو شريف مات؟» ننظر لها أنا وأمل في حيرة والحزن يطفر من أعيننا.

لا نرى شريفًا ليومين بعدها ونخاف إذا سألنا عليه يتهمنا أحد بقتله. في اليوم الثالث ينزل شريف ليلعب كعادته ولا يذكر أي شيء عن عصير العنب المزعوم، ولكن ينتحي بي جانبًا وينصحني بأنه ينبغي في المرة القادمة أن أغسل العنب أولًا ثم أعصره، بدلًا من وضع الصابون عليه

مباشرة في العصير. أعده أنني لن أعصر العنب بعد ذلك لأني «مش بحب العنب أصلًا!» يقول برقة: «لأ ماتقوليش كده! ده كان حلو جدًا!»

أقول لسماح وأمل أنني قرأت طريقة صنع الطباشير في ميكي جيب ووجدت أنها سهلة للغاية، وأقترح عليهم أن نوفر النقود التي نهدرها على شراء الطباشير ونصنعه بأنفسنا. تنبهني أمل إلى ثغرة صغيرة في الخطة: من أين لنا بالجير اللازم لصنع الطباشير؟ تتهلل سماح وتقول إن أهل تامر يصلحون شيئًا ما في منزلهم، وإنها رأت كومة من الجير داخل شرفتهم حيث يسكنون بالطابق الأرضي أيضًا، وحيث إنهم في بلبيس الآن لقضاء بضعة أيام فيمكننا «اقتراض» كمية قليلة وغير ملحوظة من الجير منهم. أفرح جدًا وأقول لسماح حيث إن هي التي تفتق ذهنها عن هذه الفكرة اللامعة فعليها أن تذهب وتُحضر الجير. تتحمس سماح لدورها في مشروع الطباشير العظيم وتأخذ علبة صغيرة وتذهب من فورها لتنفيذ المهمة.

ولكن بمجرد أن قفزت سماح في شرفة تامر، سمعنا صوت سيارة وأصوات أشخاص تقترب منا. ننظر من فوق سور البناية فنرى والد تامر...ومعه ثلاثة أشخاص آخرون! والد تامر طيب ولكنه سريع الغضب، ويكفهر الجو من حوله إذا رأى أحدًا منا يحوم حول حديقته الحبيبة. نجري أنا وأمل لنختبئ بعد أن نهمس لسماح أن تفترش أرضية الشرفة وألا تُصدر أي صوت. يدخل والد تامر شقتهم ويفتح النوافذ ويضيء الأنوار كلها ليستقبل ضيوفه. نتسلل بجوار الشرفة، ونرمي لسماح بعنقود عنب لتروح به عن نفسها في الأسر. كان على أحدنا أن يضمن أن والد تامر لن يخرج للشرفة أو ينظر من النافذة حتى ننقذ سماح ونأخذ الجير. أقول لأمل: «لما أضحك بصوت عالي خللي سماح تنط من البلكونة وإنتي خدي الجير واجروا لبيت سماح».

أطرق باب شقة تامر فيفتح لي عمو ويتهلل لرؤيتي: «أهلًا أهلًا، إنتي شفتيني افتكرتي إن تامر جه؟» أبتسم ببلاهة فيقول: «لا يا ستي، لسه ماجاش، أنا جيت لوحدي».

أفكر سريعًا: «أصل يا عمو... مممم.. طيب يا عمو.. مممم.. ممكن أبعتله جواب؟».

«تبعتيله جواب؟ إحنا واخدينه يصيف، مش خاطفينه!» يضحك ولكن يوافق.

«بس أصل يا عمو.. مممممم.. أنا مش معايا ورقة وقلم دلوقتي!».

«طيب مش مشكلة، روحي اكتبي الجواب وهاتيه».

«لأ يا عمو! ما ينفعش! أصل يا عمو.. مممم.. أصل صباعي يا عمو.. صباعي.. صباعي ده.. وده وده وده.. كل دول.. قفل عليهم الباب».

ينزعج عمو ويهم بأن يطلب مني أن أريه أصابعي المصابة، ولكن تتدخل العناية الآلهية فينادي عليه أحد أصدقائه من الداخل، فيرد عليه ثم يلتفت إليّ ويقول: «طيب تعالي جوه أكتبلك الجواب». أضحك بصوتٍ عالٍ (لأعطي الإشارة لأمل) فينظر إليّ عمو باستغراب (وقد آمن أن تحطم أصابعي أثّر في قواي العقلية)، فيضيء وجهي كله بابتسامة واسعة وأنا أسمع خطوات مسرعة في الممر خارج الشرفة فأطمئن لنجاة سماح.

أدخل وأُملي على عمو الرسالة:

«صديقي العزيز تامر،

القطة المشمشي وِلْدِت. مَوِّتنا دودة وعملنا لها جنازة. رجل المستحيل نَزِّل عدد جديد.

صديقتك العزيزة

رحاب بسام

القاهرة في ١٦ أغسطس ١٩٨٧»

بمنتهى الجدية أقول: «بس خلاص. متشكرة يا عمو».

يغالب عمو الضحك: «لا ده أنا اللي متشكر. أنا متأكد إن تامر هيتبسط أوي لما يعرف إن الدودة ماتت والقطة ولدت».

فجأة نسمع أصوات صراخ في الخارج فنركض خارجين أنا وعمو. أرى منظر لن أنساه طول عمري: أمل في الحديقة، ملطخة بالجير، تقفز وتقفز وتقفز، وتصرخ: «يا ماما! يا ماما! يا ماما! يا ماماااااا!!!!!» وتحاول أن تتخلص من ملابسها بهيستيرية. ويصرخ عمو عندما يراها تدوس في أحواض الورد البلدي، وتصرخ سماح عندما ترى أمل بدون ملابس. أقفز في الحديقة لأقوم بأي شيء ينهي هذا الموقف، وتقفز سماح في الحديقة لتساعدني، ويقفز عمو ليرمي بنا خارج الحديقة.

يتضح فيما بعد أنه كان هناك فأر يختبئ في الجير، وعندما ذهبت أمل لاقتراض الجير ذُعِر الفأر فقفز داخل فستانها الفضفاض، ووقعت أمل في الجير وهي تحاول تخليص نفسها، ثم أخذت في الجري للحديقة عسى أن يهرب الفأر من تلقاء نفسه عندما يجد أنه وسط مكان يعرفه.

يصيح عمو فينا فيهرب الفأر ونجري نحن حتى نصل لبيت سماح. نجلس على سلم بنايتها نستعيد أنفاسنا ونربت على أمل لنطمئنها وننفض عنها الجير، ثم شيئًا فشيئًا نبدأ في الضحك حتى تدمع عيوننا.

أسأل أمل: «كان لونه إيه الفأر؟»

«لونه؟! أنا شفت سنانه ما لحقتش أشوف لونه».

تقول سماح بحكمة: «المرة الجاية ما تلبسيش هدوم واسعة» (كأن هذا هو حل المشكَلة!).

تنهرها أمل: «وإنتي كنتي بتصرخي ليه إنتي كمان؟».

«أنا ما شفتش الفأر أصلًا! أنا كنت فاكراكي هتقلعي هدومك في وسط الشارع!».

تقول أمل: «آدي آخرة أفكارك: فار وطين وجير، وكمان بوظنا جنينة عمو».

تسألني سماح: «أمال إنتي إزاي شغلتي عمو؟».

«قلت له عاوزة أكتب جواب لتامر».

«جواب لتامر؟! ليه هو تامر فين؟».

«أهو اللي جه على بالي ساعتها!».

«وقلتي له إيه في الجواب؟».

«قلت له على القطة...والدودة...».

«القطة والدودة؟!».

«آه...».

ننظر لبعضنا البعض ثم ننفجر في الضحك من جديد.

ومرة كل أسبوع أستقل دراجتي وأذهب مع ثلاثة آخرين من أصدقائي للمكتبة البعيدة جدًا لشراء «الألغاز» (بعد سنوات من تركي لهذا المنزل اكتشفت أن تلك المكتبة لم تكن بعيدة إلى هذا الحد الذي تصورناه. ربما

لأنها كانت في آخر شارع كبير وطويل كنا نحس أنها بعيدة ويستدعي الذهاب إليها صحبة آمنة في وضح النهار). أتذكر أن الجو كان دائمًا شديد الحرارة في مثل هذه النهارات، وأتذكر أيضًا أن ذلك لم يمنعنا من الذهاب. نشتري ملف المستقبل وعين في اتنين ورجل المستحيل والمكتب رقم ١٩ والمغامرون الخمسة والشياطين الـ١٣ وقصص المكتبة الخضراء. وبعد أن يأتي كل منا على غنيمته القصصية نخصص يومًا للتبادل الثقافي، فنرص كتبنا على قفص دواجن نغطيه بمفرش منقوش، وأدون أنا في دفتر أزرق صغير أسماء الكتب وأسماء المستعيرين وعنوان منزلهم وتاريخ الاستعارة. أقرر غرامة ٢٥ قرشًا (أو اثنين بسكويتة بيمبو) في حالة ضياع أو تلف الكتب.

نلعب عسكر وحرامية ويتعين على حماده (لأنه أكبرنا) اختيار فريق فيختار كل الأولاد «الكبار»...وأنا! ويبقى للفريق الآخر البنات وبعض الأطفال. نبدأ اللعب ويكون من الواضح أن فريقنا هو الغالب. تتوقف سماح عن اللعب وتقرر أن «ما ينفعش تبقوا كلكم في فريق واحد!». يصر حماده على فريقه فيشتد غيظ سماح وتقرر أنها لن تلعب وتصب جام غضبها عليّ، تعقد ذراعيها أمام صدرها وتقول: «إحنا ما يشرفناش نلعب مع واحدة بتستخبى تحت العربيات!».

أنفجِر في البكاء وأنا أحاول أن أشرح لها أنني أحب الاختباء تحت السيارات لأنه مكان غير متوقع، فيتعاطف معي كل الأولاد وبعض البنات، وتنقسم مجموعتنا إلى فريق منحاز لي وفريق منحاز للشرف. ولمدة ثلاثة أيام لا تخرج سماح للعب وألعب أنا مع الأولاد، ثم أَمَل من صخبهم وأحن إلى عرائس سماح وحفلات الشاي، فأذهب لها وأقول إنني لن أختبئ تحت السيارات بعد الآن، ولكن عليها أن تعتذر لي وللكل فتوافق ونعود أفضل الأصدقاء.

كان تامر عاشق مثالي: يتسلق الأشجار ليأتي لي بالزهور الحمراء الكبيرة التي أُحبها، يُصلح لي دراجتي، يذهب وحده لميني ماركت محمود (رغم أنه لم يكن يملك دراجة) ليأتي بأي شيء أشعر فجأة أن «نفسي فيه»، يُفاجئني بقطع صغيرة من الشوكولاتة ملفوفة في ورق لامع أو شفاف وملون (يأخذه من ورق تجليد كراريسه القديمة)، يدافع عني في المشاجرات، يتركني أسدد أهداف في المباريات، يدعني أختار الألعاب التي أريد أن ألعبها، لا يعترض على صداقاتي مع الأولاد، لا يتضايق من تنوراتي المتناهية القِصر، يُثني على شَعري في كل حالاته، ولا يُمسك بي في الاستغماية. وكان يكتب لي شعرًا قصيرًا على ورق صغير جدًا (كان يكتب عن الورد والشجر والسناجب، ولكن حيث إنه كان يعطيني هذه القصاصات فاعتبرت أن كل هذا الإنتاج الشعري موجه لي). كان تامر في الثالثة عشر من عمره وكنت في العاشرة.

وفي يوم من الأيام كنا نلعب كالعادة أمام بيت سماح: بعضنا يدور في دوائر بلا هدف بدراجته، بعضنا يلعب «أفلام»، بعضنا يقذف البعض الآخر بأحجار، وبعضنا منهمك في إتقان بالونات اللبان، وأنا في درس خصوصي في كرة القدم مع حماده. يريد حماده أن يعلمني كيف أسدد هدف «داخل» المرمى، كنوع من التغيير (حيث أن كل الكرات التي أركلها كان يتعين على الأولاد أن يسترجعوها من فوق الأشجار وشرفات الجيران والحدائق المجاورة). بعد ساعتين من التمرين أنجح أخيرًا في تسديد الكرة في المرمى! أصرخ في سعادة فائقة، وآخذ في «التنطيط» على سلم البناية والضحك بدون توقف، وفجأة يظهر تامر بجواري لا أعرف من أين.

بتجهم شديد يقول: «ما ينفعش!».

أتلفت حولي غير متأكدة مَن المقصود بهذا الحوار. أدرك أنه يقصدني أنا: «ما ينفعش إيه؟».

«مش مفروض حماده يعلّمِك! مفروض أنا اللي أعلّمِك!».

«تعلمني إيه؟».

«أعلمك الكورة!».

تـزداد علامات عدم الفهم على وجهي: «اشمعنى إنت اللي تعلمني؟!».

«علشان أنا بحبك!».

أحملق فيه بذعر، ولا أشعر بيدي وهي تأخذ ردة فعل مستقلة فتصفعه صفعة يتردد صداها في بئر السلم بالعمارة. أنزل درجات السلم مسرعة عندما أرى الغضب يتصاعد في عينيه، ولكنه يلحق بي أمام باب العمارة ويحاول أن يلوي ذراعي ليوقفني ويرد لي الصفعة، فأصفعه بيدي الأخرى وأطلق لساقي العنان، ولا يحاول هو أن يلحق بي هذه المرة، فالكل يعرف أنني أسرع من يركض في شارعنا.

أتسلل إلى البيت حتى لا تسألني أمي لماذا عدت مبكرًا من اللعب. ولأن بيتنا كان بالطابق الأرضي كان يمكن أن أدخل غرفتي من الشرفة المطلة على الحديقة دون أن يراني أحد. أجلس في غرفتي أحاول أن أفهم أو أجد تفسيرًا لما حدث. ألجأ إلى عرائسي: «شفتوا المصيبة اللي أنا فيها؟؟ بيحبني يعني إيه؟ وأنا أعمل إيه دلوقتي؟؟ كده لازم نتجوز!».

وأثناء هذه الوقفة مع الذات أسمع فجأة جلبة في الحديقة: صوت شيء ثقيل يقع على الأرض، أصوات أقدام، نباح كلب الجيران، ثم فجأة صوت مياه غزيرة، وصوت أقدام تركض بعيدًا. أنظر من خلف زجاج غرفتي فلا

أرى شيئًا. أسمع أمي تخرج في الشرفة وتنادي: «مين؟! مين؟!» وأسمع جارتنا اليونانية وهي تنهر كلبها ليصمت. أخرج في الشرفة فأجد خرطوم المياه قد أغرق الحديقة وأرى حذاء أحمر على سور الشرفة. أعرف أنه لتامر. أنظر حولي لأفهم ماذا كان يفعل هنا فأرى دراجتي على الأرض وقد أُفرغ من إطاراتها الهواء!

يخرج أبي للشرفة ويجد كل هذه الفوضى: «في إيه؟!».

أجيب باقتضاب: «حد فضّى العجل بتاعي».

«مين اللي عمل كده؟ إنتي عارفة مين؟».

«تامر. دي جزمته اللي على السور».

«وإيه اللي يخلي تامر يعمل كده؟؟ تامر ولد مؤدب. إنتي أكيد عملتي له حاجة».

أهز رأسي موافقة وأبدأ في شرح موقفي: «أصل يا بابا..».

يشير إلي أبي أن أصمت: «بس.. بس.. بدال فيها «أصل يا بابا» يبقى مش هاخلص منك ومن لماضتك». ويطلب مني إذا كنت أغضبت تامرًا أن أذهب وأعتذر له.

أخرج من البيت مرة أخرى وأنا أشتاط غضبًا هذه المرة. أعتذر له؟! هو بيحبني وأنا أعتذر له؟؟ وبعدين دي مش زي دي: الحب مش زي العجلة! إزاي يعمل كده في عجلتي؟! وبعدين هو الغلطان! هو اللي قال إنه بيحبني!

وأنا أسير في اتجاه بيت تامر أجد والده يسير في الاتجاه المقابل. أركض نحوه: «يا عمو.. تامر فضّى لي الكاوتش بتاع عجلتي!»

«ياه! ده شرير أوي! وليه يا ترى عمل كده؟».

أتردد في الإجابة.

يميل عمو عليّ ويهمس: «إنتي عملتي إيه؟».

أحسست بالسأم من كل هذه الاتهامات فقررت أن أعترف: «ضربته بالقلم!».

يُصعق عمو: «ضربتيه بالقلم؟!».

«أيوه! علشان هو قال إنه بيحبني.. ودلوقتي لازم نتجوز!».

يغالب عمو الضحك ويعرف أن «الموضوع جد» فيأخذني من يدي لبيتهم وينادي على تامر. يأتي تامر حافي القدمين ومحمر الوجه. يقول عمو إنه سيحضر شيئًا نشربه ويتركنا سويًا.

أجلس في صمت عنيد بلا حراك، ويختلس هو النظرات إلىّ. لا أحتمل الصمت أكثر من بضع ثوانٍ: «إنت إزاي تعمل كده؟! إنت عارف يعني إيه حب؟!»

يطرق تامر بإحراج ويجيب بتردد: «آه...».

«يعني إيه بقى؟!».

«يعني أبقى مبسوط وأنا معاكي، ولما ما تكونيش موجودة أكتب كل الحاجات اللي حصلت في نوتة ولما تيجي أحكيها لك، يعني أنا اللي أجيبلك الورد والشوكولاتة، وأنا اللي أعلمك الكورة».

أصمُت. كلامه معقول وما يتكلم عنه يبدو كالحب فعلًا. إذا لم يكن هذا هو الحب فما الحب إذن؟

أبتسم فيبتسم. ثم أسرع في توضيح موقفي: «بس أنا مقدرش أتجوزك يا تامر، لازم تعرف كده، أنا مش هاضحك عليك!».

«لا مش لازم نتجوز، مش ضروري، أنا بحبك، ده المهم».

أتنفس الصعداء ويرى هو الراحة البادية عليّ: «يعني خلاص؟ صافي يا لبن؟».

«حليب يا إشطة».

يعطيني ورقة صغيرة ملفوفة: «أنا كتبت لك الشعر ده دلوقتي بعد ما طلعت أجري من بيتكم».

أفتحها فأجد أنه زيّن القصاصة برسومات رقيقة لزهور وعصافير.

«الحب على الشجر

والقلب في المطر

والشمس في الصباح

والقمر في المساء

أنتِ جمال الدنيا

وحقيقة الأشياء»

ألاحظ أنه لأول مرة يقول «أنتِ» في قصيدة فيحمر وجهي بشدة، ولا أعرف كيف أستجيب لهذه اللفتة التي تنم (بالتأكيد) عن حب عميق. يأتي عمو بالليمون البارد ويرانا تحيط بنا هالة من الإحراج والخجل والقلوب والعصافير فيعرف أننا سوّينا أمورنا، فيطلب من تامر أن يعيد نفخ إطارات دراجتي فورًا حتى أستطيع اللعب غدًا.

قبل أن ينام يحضر أبي لغرفتي ليطمئن عليّ. يسألني: «كان إيه بقى اللي حصل علشان تضربي تامر بالقلم؟» فأحكي له. يضحك أبي طويلًا ويقول: «يا بنتي لو كل واحد قال لك أنه بيحبك هتضربيه بالقلم حياتك هتبقى صعبة جدًا». لا يبدو عليّ الفهم فيُقبلني ويخرج.

أسمعه في الردهة يضحك بصوت خافت ويتمتم لنفسه: «تضربه بالقلم؟! علشان بيحبها؟! أمّا صعيدية صحيح!».

هكذا تكلمت القطة المشمشي[1]

أليس قالت تسأل القطة المشمشي لأن باين عليها بتفهم: «ينوبك ثواب...تقدري تقوليلي آخد أنهي سكة علشان أطلع من هنا؟».

القطة المشمشي ردت على أليس رد مُفحِم: «والله ده يتوقف على إنتي عاوزه تروحي فين أصلًا».

«مش فارقة معايا أوي الصراحة..».

«يبقى مش هتفرق معاكي السكة اللي هتاخديها».

أليس اتخضت: «أيوه.. بس أنا عاوزه أطلع من هنا، وأوصل في الآخر لمكان معين يعني!».

القطة المشمشي ضحكت كده وقالت: «ما تخافيش.. أكيد هتوصلي في الآخر لمكان معين.. لو مشيتي كفاية».

(١) ترجمة بتصرف لقطعة من الفصل السادس من «أليس في بلاد العجائب» للويس كارول.

فوضى التكوين

الضباب الأصفر الذي يحك ظهره على إطار النافذة،

الدخان الأصفر الذي يحك أنفه في إطار النافذة،

لعق بلسانه أركان المساء،

تريث قليلًا عند البحيرات الصغيرة في البالوعات،

ترك رماد المداخن يسقط على ظهره،

وعندما وجد أنها إحدى أمسيات أكتوبر الناعمة

التف حول المنزل، وراح في النوم.[١]

تعرفي إيه عن الخيانة؟

من السهل على الإنسان...

واحدة واحدة!

من...

(١) من قصيدة «أغنية بروفروك للحب» للشاعر ت. س. إليوت.

واحدة واحدة!

ميم.. نون.

أنا كبايات عصير قصب مليانة ع الآخر أنا كبايات عصير قصب مليانة ع الآخر أنا كبايات عصير قصب مليانة ع الآخر أنا كبايات عصير قصب مليانة ع الآخر أنا كبايات عصير قصب مليانة ع الآخر[١].

ـ مالك تنحتي كده ليه فجأة؟

ـ هه؟

ـ تنحتي كده ليه؟

ـ باكتب

ـ بتكتبي فين؟!

ـ في دماغي.

والخلق مابتشربش[٢].

ـ .. حاسة إنه مهجور..

ـ لا أبدًا.. هو شوية إضاءة ويبقى كويس أوي!

ـ أنا كنت باتكلم عن قلبي..

أنا بحب الأبيات دي أوي.. ودايمًا لما باقراها باحس إنه بيتكلم عن قلبه..

(١) من قصيدة «الأرض زهرية فاضية» للشاعر بهاء جاهين

(٢) نفس القصيدة.

فيرجينيا وولف كانت بتسمع أصوات.. ما فهمتش إيه المشكلة يعني لما تسمع أصوات.. لكن أول ما بدأت اكتب فهمت.. وما بقتش أشيل حاجات تقيلة في جيوبي..

حاسة إني تلاجة.. مقفولة.. ومخزنة الحاجات جواها.. وبتفتح حتة صغيرة أوي.. تديك حاجات باردة ومالهاش طعم.. وكل اللي بتاخده بتبرده وتشيله.

عارفه إن ت. س. إليوت كان في مصحة عقلية؟

ـ ساعات بابقى نفسي أدوس بنزين على الآخر وأسيب الدركسيون وأغمض عينيا

ـ ودلوقتي من الساعات دي؟

ـ ها ها ها.. لأ.. أنا عندي اجتماع مهم بكره عاوزه أكون موجودة فيه بشحمي ولحمي.

«كتابة علاجية؟ هأو أو أو.. شي الله يا علاجية!».

حلمت إني جيت أروح الشغل الصبح، نزلت لقيت عربيتي اتسرقت، قعدت أعيط أعيط ومحدش في الشارع شايف إني باعيط.. وصحيت لقيت عينيا منفخة..

«لأ لأ...حاسة زي ما أكون حتة خشبة ناشفة...عندها استعداد تام للاشتعال في أي لحظة».

ـ سامع الصوت ده؟

ـ صوت إيه؟

ـ صوتي.. وأنا باتفتت.. حتت صغيرة.. صغيرة..

أنا مش باحبك.. بس باتبخر..(١)

بيقولوا إن مضاد الاكتئاب بيخليكي تقومي من السرير وتروحي الشغل.. إزاي يعني؟ هيلطشك قلمين طاخ طيخ ويديكي شلوت ويقول لك قومي فزي من السرير عيشي حياتك؟ والا هيصحيكي من كتر الزغزغة؟

دماغي ترابيزة بلياردو: أفكر فكرة.. تخبط في باقي الأفكار وتبعزقها يمين وشمال.. آجي أضرب فكرة منهم علشان تنزل في البوكيت.. تقوم تفلت وتخبط في فكرة تانية ما كانش قصدي أخبطها.. وفي الآخر كل الأفكار على الترابيزة ومفيش ولا واحدة متأكدة من إنها خلاص في البوكيت ومش هاشوفها تاني أبدًا.

.. اللي اتجوز واللي خلف واللي «أطلق لحيته» واللي بقت دكتورة في الجامعة.. ولما سألوني وإنتي عاملة إيه قلت لهم أنا زي ما أنا.. وحسيت إن في صاعقة هتنزل من السما على راسي علشان دي أكبر كدبة كدبتها في حياتي.. أنا أكيد مش زي ما أنا..

فجأة لقيتني في عز حياتي

ضاعت مني ثواني كتيرة(٢)

ـ مش عارفه إيه الحكاية.. المدير شكر فيا في الاجتماع.. حلمت يومها بليل إنه مات.. اداني ترقية.. حلمت إن أمه ماتت! وفي الحلمين قعدت أعيط أعيط وباحاول أصرخ ومحدش سامعني.

ـ مش ملاحظة إن الحلم ده إتكرر بتنويعات كتير؟

---

(١) نفس القصيدة.

(٢) من قصيدة «ثواني كتيرة» للشاعر أمين حداد.

- أنا ماعنديش أحلام بتتكرر.. هو بس حلم النمر اللي بيجري ورايا وبيت جدتي في أبو قير اللي بيتحرق.

في عمر بيولوجي محدد لجسم الست.

أنا فكرت في الدوا ده فترة.. بس بيقولوا إن مفعوله بيبدأ بعد تلات أسابيع.. مالوش لازمة.. أنا عاوزه حاجة تعمل مفعول فوري..

والدمع اللي في عيني بيوجع

ما بينزلش...وما بيطلعش[1]

«بتعيطي على إيه؟! هه؟! أمك ماتت؟ هه! ردي عليا!».

- .. وفي نغزة في قلبي مسمعة في كتفي، وكتفي أصلًا كله شادد!

- أحسن حاجة تعملي إكس راي.

- على القلب؟

- على الكتف يا بنتي!

لاحظت إني دايمًا باقول الحاجات مرتين: أيوه أيوه.. ياللا ياللا.. لأ لأ.. أو تلاتة: أعيط أعيط أعيط...أصرخ أصرخ أصرخ.. أضحك أضحك أضحك.. تفتكر ليه؟

- أنا عاوزاك تجيبلي شتلة ورد.

....

- شتلة الورد ماتت.

(١) من نفس القصيدة.

- ما تشوفيش الميتافور في كل حاجة.

أنا أكون

أنت تكون

هو يكون

هي تكون

نحن نكون

أنتما تكونان

أنتم تكونون

هم يكونون

- تفتكري هنبقى زي الست دي لما نكبر؟

- لأ...أنا هابقى مختلفة أوي.. كحل أسود.. روج أحمر.. شعر أسود ليل.. طويل شوية.. كعب عالي على طول.. حريقة سجاير..نضارة سودا.. مانيكير أحمر للأبد.. شخصية صامتة كده وعدوانية وغير اجتماعية.

- أمممم.. أنا مش حابّة الصورة دي ليكي في المستقبل.. هنبقى أصحاب ساعتها يا ترى؟

- لأ.. قدامي كتير علشان أوصل للمرحلة دي.. ساعتها هيكون في ناس كتير أوي لعبت لي في دماغي...وشخبطت لي على أحلامي.. وهاكون خسرت ناس كتير.. بس هيكون لسه عندي قطة..

روح العالم يا سيدي إديتني بمبة المره دي. موضوع السفر اتلغى. لقوا مترجمة محلية عندهم وده طبعًا أرخص بكتير. أُحبطت أنا جدًا طبعًا. يعني

هو أنا مش زعلانة بس محبطة. بس أنا غلطانة إكمني عشمت نفسي أوي يعني. حقتي كنت تظاهرت باللامبالاة فروح العالم تفتكر إني مش مهتمة فبالعند فيا تديني اللي أنا متظاهرة إني مش عاوزاه.

الشعر عيرة والكحل عيرة

والورد فوق الخد

ولحد الضفيرة عيرة

الصبر عيرة والضحك عيرة

والفرح والأحزان كمان وحاجات كتيرة

حتى الحنان جوه البيوت

حتى الكلام.. حتى السكوت

حتى الهتاف جوه المسيرة برضه عيرة

...

ما بقيتش شايف إيه اللي جاي وإيه اللي فات

ما بقيتش أفرق

ده أزرق ده ولا أحمر رمادي

ودي كارثة ولا ده وضع عادي

...

وده إحنا ولا الكل حاير[1]

(١) من قصيدة «عيرة» للشاعر علي سلامة، والتي لحنها وغناها وجيه عزيز.

.. فسألني إنتي ليه بتكتبي بالإنجليزي؟ هل علشان تحطي مسافة بينك وبين اللي بتكتبيه؟ سكت ساعتها خالص.. وبعدين قعدت وقت طويل أوي أفكر في المسافات التانية.. اللي حطتها واللي لسه باحطها.. بيني وبين الناس.. بيني وبين نفسي.

«فاكــر في فيلم «آميلي»[1].. لما بص لها قامت ساحت واتدلدقت ع الأرض؟».

عاوزه أقف فوق الجبل ده واصرخ بعلو صوتي: «فلتحل الفوضى على العالم...وليخرس الجميع إلى الأبد!».

(٢) فيلم فرنسي من إخراج جان بيير جونيه وبطولة أودري تاتو.

مرسي اتهزم يا رجالة

أستيقظ مبكرة. أشرب قهوتي وأتصفح الجريدة وأرتدي ثيابي. أتسلل خارج البيت حتى لا أوقظ مرسي. ولكنه يفتح عيناه بصعوبة وينظر إلى محاولًا الفهم (إلى أين هي ذاهبة «ع الصبح كده»؟ ولماذا؟) أبتسم له فيغلق عيناه ويفتحهما مرة أخرى ثم ينسى الذي كان يفكر فيه ويعود للنوم.

أعود من عملي وأفتح باب المنزل فأجد مرسي واقفًا بثبات وتنبه أمام الباب مباشرة. ينظر لي في عيني ولا ينزل عيناه ولا يبتسم. ولكني أعرف من رقصة عينيه أنه سعيد بعودتي. يراودني شعور غير مريح أنه أمضى اليوم كله واقفًا هكذا: منتظرًا باهتمام. آخذه بين ذراعيّ وأقبله. لا يبدو عليه أي تأثر بهذا العرض المفاجئ من المشاعر. أتركه وأدخل لأبدل ملابسي. أجهز عشائي وعشاءه. نأكل في صمتٍ أليف. نغسل أيدينا ونتمدد على الأريكة. أحضنه فينظر في عيني بترقب.

أسأله السؤال الذي أعرف أنه ينتظره: «عملت إيه النهارده؟» تمتلئ عيناه حماسًا ويرد: «نياو! نياو! نياو!» أبتسم لحماسه وأقول: «يااااه! كل ده؟! وإيه كمان؟» فيقف على قدميه الأماميتين ويعلو صوته وهو يحكي بسرعة وبتدفق: «نياو نياو نياو.. نياو! نياو نياو!» يظهر عليّ الاهتمام:

«طيب قول لي.. هم عملوا فيك إيه؟» ينظر بعيدًا وبشرود يهمهم: «نياو.. نيااااو.. نيو.. مممممم» أتعاطف معه وأربت عليه فيمسح رأسه في كتفي ويزوم في هدوء.

أعرف من أمي أنه كان يلعب في الحمام عندما دخل أخي الحمام وغسل يديه وخرج وأغلق الباب بدون أن ينتبه لوجود مرسي بالداخل. استمر مرسي في اللعب حتى فتحت أمي باب الحمام فجأة فاصطدم الباب بالسلم (الذي كانت نسيت أنها وضعته خلف الباب)، فوقع السلم على حنفية الحوض فانكسرت وانفجرت المياه في كل مكان وبالتحديد في وجه مرسي الذي كان يلعب بسلام على حافة الحوض. ومما زاد الطين (والحمام) بلة أنه عندما وقع السلم عَلَق الباب، ولمدة خمس عشرة دقيقة لم يتمكن أحد من دخول الحمام أو غلق المياه أو إنقاذ مرسي من الجري الجنوني في كل مكان في الحمام، فأخذ يتخبط في الحائط، ويهرب من الحائط فيتخبط في السلم، ويهرب من السلم فيقفز في الحوض فتغرقه المياه فيقفز مرة أخرى وتستمر الرقصة المفزوعة. تقول أمي إنه بعد إنقاذه دخل غرفتي وطمر نفسه وسط أغطية سريري ورفض أية محاولة للصلح.

أكتم ضحكي وأذهب إليه. أجده على الأريكة يشاهد التليفزيون بتركيز مصطنع. ينظر إليّ ويعرف من نظرتي أنني عرفت. يتنازعه خجله ورغبته في استدرار عطفي. أحتضنه فيحتضنني، ويمسح رأسه في كتفي، ثم يسند رأسه على يديه وينظر إليّ سعيدًا. أبتسم: «معلش يا مرسي، أيوه، امسحها فيّا.» يريح رأسه على كتفي ويكور جسمه كله في المساحة ما بين كتفي ويدي وينام. أضم رجليّ تحتي وأخفض صوت التليفزيون وأنام.

على بياض

الصفحة البيضاء هي الموت، هي قبري الذي ينتظرني. أفتحها وأنظر فيها فتحدق هي فيّ، ويكون عليّ أن أرمي فيها بنفسي، أو بأي شيء آخر فداءً لي. أشق أطراف أصابعي، شقوقًا صغيرة، لعل الكلام ينسال منها ببساطة، ولكن البوح يستعصى على التبسيط.

أفكر: إذا أملت رأسي هكذا قد تأتي الكتابة، أو إذا شربت زجاجة مكتوب عليها «المُر»، أو إذا تنفست هوًاء نظيفًا، أو إذا جلست وحدي بعض الوقت، أو إذا مشيت تجاه الحائط مباشرة وخبطت رأسي فيه. ولكن لعنتي هي أن الكتابة لا تأتي مع ميل في الرأس أو هواء في الرئة، بل تأتي وأنا متعبة للغاية، وأنا نائمة، وأنا ينتظرني الكثير من الغسيل، وأنا أقود لمسافة طويلة وبجواري يجلس حوار مُجْهِـد.

الصفحة البيضاء هي النداهة: تهمس من بعيد، فأرمي كل شيء وأتبعها؛ أقوم من النوم، أترك حوارًا في منتصفه، أنظر دون أن أرى، أفتعل تعبيرات بوجهي دون أن أسمع أي شيء مما يقال، وتنغلق كل حواسي وأسير بالدفع الذاتي.

لا أستطيع أبدًا أن أفتح صفحة بيضاء وأجلس أمامها في انتظار الكتابة. ولكن تأتيني كلمة، فأُمسك بمقشة كبيرة وأكنس دماغي من الداخل جيدًا، ثم أغسلها من فوقها لتحتها بماء بارد والكثير من الصابون برائحة اللافندر،

ثم أجففها، وأُفسح المجال لتلك الكلمة لتأخذ أي شكل تريده. من هذه اللحظة لا تصبح دماغي فوق رأسي، ولا أستطيع أن أتحكم فيها، ولا حتى أن أتذرع بهرشها لأتأكد من أنها مازالت هناك، أعلى رقبتي.

يمكنني في أي وقت أن أغمض عيني، فأرى دماغي وكأنها جهاز لصُنع غزل البنات: تضع السكر في منتصفه، وتضع العصا الصغيرة في الجهاز وتديره. يسخن الجهاز، وتتجمع حول العصا خيوط رفيعة من الغزل، وتظل العصا تلف وتدور، والغزل يكبر ويكبر، وهناك طفل يبكي لأنه يريد غزل البنات الآن.. فورًا، وآخر لا يريد أن تكون له أية علاقة بكل هذا اللف والدوران. لا تتوقف دماغي عن الدوران أبدًا. يتجمع الغزل ويملأ زوايا وأركان دماغي، بل يتجمع ويتجمع ويغطي أثاث دماغي، وكل أجهزته الكهربائية. وأجدني، في المرة التالية التي تأتيني فيها كلمة، أغرق في كل هذا الكم من غزل البنات، ويكون عليّ، في كل مرة، أن أبدأ من البداية لأفك كل هذه الخيوط.

الصفحة البيضاء هي الاحتمالات اللامتناهية، هي الشاسع والمطلق والرحب..

.. ويكمن فيها أيضًا احتمال الخرس. تصبح الصفحة البيضاء عندها موت هزلي، غير بطولي بالمرة، ونهاية لحياة ماسخة مرت دون أن يلاحظها أحد، ولا حتى صاحبتها. تصبح الصفحة نقطة في نهاية جملة العَيْش.

غزل البنات..

سكر نبات..

تبات ونبات..

صبيان وبنات..

لكن ـ في الواقع ـ أبوك السقا.. مات.

المرجيحة

لأنها تخاف المرتفعات، لم تثق أبدًا في قمة السعادة.. ولا قمة التعاسة. تجلس دائمًا على المرجيحة المعلقة بين القمتين. فكل سعادة تحمل نُذُر تعاستها، وكل تعاسة تحمل بشائر سعادتها. في السعادة، تتذكر الغائبين، وتتساءل عن دوام تلك السعادة. في التعاسة، يخرج لها القط مبتسمًا فجأة من وراء الستائر، أو تأتي قهوتها مضبوطة. من على المرجيحة وصلت إلى الحكمة: كل شيء نسبي، والحياة مراحل.

لأنها تخاف المرتفعات، لم تسع أبدًا لقمة السعادة أو قمة التعاسة. ولكنها، ولِقِصر قامتها، لم تستطع أيضًا أن تلمس أرض الواقع أو قاع الوهم. لذلك تقضي وقتها على المرجيحة، تدغدغ الهواء بقدميها وتدندن بجدية. وإذا رأت الشمس ساطعة، أخذت معطفها؛ وإذا هبت عاصفة مطيرة، أخذت المايوه.

سقط سهوًا

تُبعثر أيامها وهي تفكر في احتمالات نجاح أو فشل الحب. على منضدة الكشف تُحلل الكلمات وتُشَرِّح التصرفات. في خضم انهماكها يفوتها أن تمتن للحظات النجاح والفشل: يسهو عليها أنه هنا بالفعل، وتنسى أن تستكين لوجوده الذي يحتويها، وأن تختزن الضحك السهل والصمت الدافئ لتقتات بهم في الصعوبات والبرودة القادمة لا محالة. تُدير وجهها بمرارة بسبب شيء قاله أو لم يقله فتفوتها تلك النظرة في عينيه، وعندما تعيد وجهها إليه مرة أخرى تلمح أطراف نظرته وتكون اللحظة قد مرت، فتزداد مرارتها. لا تلحظ اليوم اقترابه منها أكثر، وتركز على اليوم الماضي، الأسبوع الماضي، العمر الماضي، أو اليوم التالي، الأسبوع التالي، العمر التالي. .إن وُجِد. في أغلب الأوقات لا تعرف كيف تتصرف. تعند فتحرم نفسها من أن تعترف له أنها افتقدته. تعند مع عِنْدها فتخرج منها «وحشتني» في منتهى الارتباك. قلة تدريب ليس إلا. مر على آخر حب الكثير.. قرابة ثلاثة العقود. مشكلتها أنها تفكر كثيرًا. مشكلتهما أنهما يفكران كثيرًا. الرقيب الذي يتربع على كاهلهما يتربص بهما: يراقب، يحلل، يصدر الأحكام، ويأمر فيمتثلان. أين جنونها؟ اختبأ منزويًا في ركن من أركان العقل. شرط الجنون الإيمان به وممارسته. «العضو الذي لا يُستعمل يَضمُر». آه والله. تلومه يومًا وتلوم نفسها أيامًا طويلة. أسعد لحظاتنا هي الآن. كيف نست أن تستمتع بحياتهما سويًا؟

الخرتيت البمبي البطيء

إنها الحادية عشرة مساءً: الحياة تتحول للوردي ببطء. في معطف دافئ طويل، ووشاح أحمر حميم، أحتضن قطعة من جريدة بها بطاطا مشوية، وألتهمها مستمتعة بالدفء الذي تحدثه في معدتي بعد كل هذا البرد. أحاول أن أختزن في عقلي تفاصيل شارع ٢٦ يوليو في هذا الوقت، ولكن أجدني مهتمة أكثر بالبطاطا. نصحني صديق أن أكون خرتيتًا، أن أضع هدفًا واحدًا نصب عيني وأركز كل طاقتي في تحقيقه، أن أكتب حتى ولو لم تحضرني الكتابة ولم أر الحدوتة في أي شيء حولي. ألتهم قطعة أخرى من البطاطا، وأحاول أن أستحضر تدريبات التركيز: أفكر في شكل جسمي، خطوتي، حركات يدي، وتنفسي. أركز أكثر فترسل السماء رذاذًا خفيفًا يدغدغني حتى أبتسم. أفكر في عمودي الفقري: أبدأ في تلوينه بالأزرق الجميل، من أول فقرة لآخر فقرة، بهدوء وتأنٍ. فرشاة الطلاء تمر على فقراتي بوداعة، لكنها تأخذ معها الكثير مما علق بعمودي الفقري طوال الليالي الفارغة. هناك صندوق خشبي أخضر بأعلاه فتحة صغيرة. أكتب تساؤلاتي عن دوري في حياته، وحياتها، وحياتهم على أوراق صغيرة، وأرميها في الصندوق وأنساها هناك. أتنفس بعمق. أصل لمنتصف ثمرة البطاطا لأكتشف أن قلبها أحلى من أطرافها. أكمل الأطراف وأترك القلب لأختم به. آخر لقمة هي أشهى لقمة. أتلذذ بالبطء، بصوت

المطر الرخيم والخطوات القليلة والسيارات المتهادية. ليس لدي شيء مهم أو فكرة جديدة، كل ما أردت أن أقوله هو إن البنفسجي يلزمه بعض الوقت ليتحول للوردي.

أسباب بسيطة

«إنت ليه مش بتمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع؟»

«لأ بلاش.. افرضي حد من قرايبك شافنا؟ والا حد من أصحاب أخوكي في الكلية؟ إن شاء الله يا حبيبتي بكره نتخطب وأمسك إيديكي أدام الدنيا كلها».

....

«إنت ليه مش بتمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع؟»

«علشان مش عاوز حد يفتكر إننا علشان اتخطبنا هنصيع بقى ونعيش حياتنا...وبعدين بصراحة كده أنا مستحرم.. إن شاء الله بكره نتجوز وأمسك إيدك وإنتي مراتي حبيبتي في الحلال».

....

«إنت ليه مش بتمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع؟».

«يا حبيبتي إحنا مش مراهقين بقى هنمسك إيد بعض في الشارع وكده.. إحنا اتنين متجوزين ومحترمين وعندنا بيت نعمل فيه اللي عاوزين نعمله».

....

«إنت ليه مش بتمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع؟»

«يعني أمسك إيدك والا أمسك إيد البنت والا أشيل الأكياس دي كلها؟!»

....

«إنت ليه مش بتمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع؟»

«إيدك إيه بس اللي هامسكها دلوقتي! إنتي عاوزه جوز بنتك يقول علينا كبرنا وخرفنا؟!»

....

«أنا بس كان نفسي تمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع.. عادي يعني.. من غير مناسبة أو هدف محدد.. بس تمسك إيدي.. ماكنتش عاوزاك تمسكها علشان تسندني أو علشان أنا مش قادرة أمشي لوحدي مثلًا.. أو علشان ده الصح اللي مفروض تعمله مع مراتك وهي عيانة..ولا علشان.. زي دلوقتي.. أنت خايف لو سبتها وقمت هاموت.. لأ..تمسك إيدي علشان أنت عاوزها تفضل في إيدك.. بس»[١].

(١) بعد أن نشرت هذه القصة على المدونة انتشرت كنكتة في رسالة إلكترونية (مع حذف الجزء الأخير) عن الحياة قبل وبعد الزواج!

لما الشتا يدق الببان[1]

تحكي لي أمي أن خالتي آمال كانت تصطحب خياطتها اليونانية معها إلى السينما لترى بنفسها موديلات فساتين شادية وفاتن حمامة، لتصنع نسخ مطابقة منها لخالتي. تتنهد أمي وهي تضيف: «طول عمرها عايقة».

توفيت خالتي آمال أول أمس. اتصلت بي أمي في العمل وقالت: «عندي خبر مش كويس عن طنط آمال». لو كانت أمي قد قالت: «عندي خبر مش كويس» وصمتت لأُغشى عليّ في الحال، فأنا منذ بضعة أسابيع أحس أن هناك شخص قريب سيتوفى، ولكنها عندما قالت الجملة كلها في نَفَس واحد فوجئت واسترحت في نفس الوقت. حبست أنفاسي وحاولت بسرعة أن أسترجع نبرة صوت أمي من أول المكالمة، لأحاول أن أحدد مدى تأثرها. أغمغم بكلام غير مفهوم محاولة تعزيتها (تعودت مني أمي على هذا، وأصبحت تفهم من غمغمتي ما تريد أن تفهم). اختنق صوتها وهي تقول: «ارتاحت» فتركت العمل في نصف النهار وهرعت إلى المنزل حتى لا تبكي وحدها. وجدت نفسي طوال الطريق أبكي بصوت عالٍ واندهشت لحزني هذا. طنط آمال هي واحدة من ثلاث أخوات غير

(١) عنوان القصة مأخوذ من أغنية لعلي الحجار.

شقيقات لأمي، ولكن لأنها أصغر تلك الأخوات فهي أقربهن لأمي ولنا. هي شخصية مرحة «حبوبة»، تحب الحياة للغاية ولديها طاقة مُعدية تنتقل لك ببساطة وأنت معها.

رغم حبي للشتاء إلا إنني أخاف منه. نجحت أمي في ترسيب لدى فكرة أن الشتاء دائمًا ما يحصد العجائز: «ما بيستحملوش البرد». أغلب موتانا رحلوا في الشتاء فعلًا.

أعود للمنزل فأجد حذاء أمي بجوار الباب خارج الشقة. أفهم أنها لم ترد أن تدخل الشقة وبقايا تراب المقابر عالقة بحذائها. أتذكر مقولة جدتي لأمي التي كانت أمي دائمًا ترددها: «نفسي أموت وتراب الشارع على رجلي»، وكانت تتمنى ألا ترقد مريضة في السرير. توفيت جدتي وهي تسقي نباتاتها الصغيرة في منزلها.

أجد أمي في السرير. أحتضنها وأحاول أن أدقق في تفاصيل عينها لأتلمس حزنها وأعرف كيف أتصرف. نتكلم قليلًا وأتركها لتنام. أخي سعيد بعودتي المبكرة ويحتضنني بمرح. يجدني متخشبة فيتساءل عما بي. «يا ابني مش طنط آمال اتوفت؟!» فيجيب ببساطة: «أيوه بس هي كانت عيانة»، فأجد رده مستفزًا للغاية. أفتح الثلاجة لأجد مشتريات غريبة كما توقعت، فأعرف أن أمي مرت على البقال لتشتري أي شيء و«تغيّر العتبة». تؤمن عائلتي (وأظن أنه اعتقاد سائد) أنه لا يجب أن يعود المرء من المقابر مباشرة إلى منزله أو أي منزل آخر حتى لا يتسبب في إحضار الموت لأهل المنزل. في أحد الأعياد ذهبت أمي وأخي وابن خالتي لزيارة قبر جدتي، ومروا في طريق عودتهم على بقالة ما لشراء أي شيء و«تنفيض» أحذيتهم مما قد يكون علق بها من تراب، وعندما عادوا لمنزل خالتي وجدوا أن جارهم قد توفى، فنظر ابن خالتي لأمي بوجه ممتقع وقال: «يمكن يا طنط إحنا ما نفضناش جِزمنا كويس؟».

في المساء نذهب لقاعة المناسبات للعزاء. أتعلم من أخطائي السابقة فألبس تحت ملابسي السوداء شيئًا أحمر يبقيني دافئة دون أن يظهر، وألف حول عنقي كوفية بيضاء. تذكرني خالاتي وبنات خالاتي في ملابسهن السوداء وأغطية شعرهن البيضاء بعائلة الملك حسين عندما توفى. لا أعرف لماذا تذكرت هذا المشهد وقتها، ربما لشعورهن الشقراء وأعينهن الملونة. بين عائلة أمي أنا من القلائل اللاتي يتمتعن بشعر غامق وبشرة قمحية. عِرق من طنطا وآخر من المنصورة هو السبب في ألوانهن. أقول دائمًا إن السبب في لون شعري وبشرتي هو بواقي عِرق مغربي، استنادًا على أسطورة عائلية مفادها أن جد جد جدي لأمي نزح من المغرب لمصر، ولكن في أعماق أعماقي أنا مؤمنة تمامًا أني أميل للجانب الصعيدي في عائلة أبي.

أجلس في القاعة أغالب البكاء وتجلس أمامي خالتي الكبيرة. يخطر لي أنها إذا كانت هي المتوفية لما حزنت كل هذا الحزن. أرفع عيني وأحاول أن أثبت ملامحها في ذهني وأن أسترجع صوتها. أبدأ في البكاء. طنط آمال هي أول أخت لهم تتوفى. منذ عشر سنوات ونحن نتوقع وفاة خالتي الكبيرة، ولم نتخيل أبدًا أن نجلس معها في عزاء أختها الصغيرة. أخرج من القاعة لأتنفس على راحتي. أجد إحدى بنات خالاتي من الطرف البعيد من العائلة تقف خارج القاعة. لم أرها منذ سنوات: إزيك.. إزيك إنتي.. أخبارك.. أخبارك إنتي، ثم تعطيني الجملة التي كنت أنتظرها: «معقولة يا رحاب ما نشوفكيش غير في المناسبات دي؟» شعرت برغبة عارمة في أن أصرخ فيها: «وهو إنتي بروح أمك كنتي عزمتيني على فرحك والا سبوع ابنك وما جيتش؟!» لكن أتمالك نفسي وأقول: «معلهش»، وينقذني وصول خالتي الصغيرة وابنتها. أركض لحضن خالتي وأسألها لماذا تأخرت، فتقول إنها كانت مازالت تحت تأثير المهدئ، فتروعني

الخطوط الرفيعة الكثيرة حول عينيها التي ألحظها لأول مرة. تدخل خالتي القاعة وأظل مع ابنتها في الخارج. تسألني: «مالك؟ وشك سُخن وأحمر كده ليه؟» فأحاول أن أشرح: «الهوا.. جوه.. جوه كتمة أوي.. أنا ماكنتش عارفه إنها عيانة كده.. أنا مخضوضة..» ولا أقول لها إنني أخاف على باقي أقاربي لأننا في الشتاء.

تأتي عمتي الكبيرة وابنتها لتقديم واجب العزاء. أرتاح كثيرًا لترابط عائلة أمي وأبي، خاصة عمتي الكبيرة وخالتي الصغيرة. عندما كنت في الحادية عشرة من عمري فقدت عمتي زوجها وانفصلت خالتي عن زوجها، وعشنا نحن الأطفال أحلى إجازة صيف، حيث كان كل هم الكبار أن نكون بعيدًا عنهم وعن البيوت المنكوبة بأي طريقة ممكنة، فقضينا جل وقتنا ما بين النادي والشارع.

أنا أذكر عن الراحلين الكثير، أو القليل، ولكن في كل الأحوال لا أنسى أصواتهم أبدًا. طنط آمال كانت تنطق اسمي بالطريقة التي أحبها، لا تنطقه «ريحاب» بسخافة بل «رحاب» بحروف واضحة. كانت في كل مرة تعود فيها من إيطاليا تأتي لنا بشيء جميل صغير. آخر هداياها كان دبوس فضي للمعطف صغير وملون، أعطته لي في كيس بنفسجي رقيق.

أفكر كثيرًا في تقدمي في السن. أردت دائمًا أن أبدو مثل خالتي آمال إذا ما بلغت الستين: قَصّة شعر أنيقة، ملابس بألوان سعيدة، بعض الفرنسية وبعض الإيطالية، ضحكة تلقائية مجلجلة، لمعة في العيون، وشقاوة و«دلع» لا يطفئهما الشعر الرمادي ولا «كراميش» الوجه والرقبة.

كنت أحضر مرة حفل لفرقة «وسط البلد» بالتاون هاوس. في منتصف الحفل لاحظت أن هناك سيدة في أواخر الأربعينيات تقف بجوارنا وتهز

رأسها بهدوء مع الموسيقى، وعلى شفتيها ابتسامة صغيرة وبعينها استمتاع يلمع. كانت تحمل حقيبة سوداء كبيرة وترتدي حذاء مريح بكعب منخفض وملابس عملية وبسيطة. أول ما خطر على بالي وقتها أنني غالبًا سأبدو كذلك في أواخر الأربعينيات. انتبهت أن صديقي يشير لي من آخر الصف محاولًا لفت انتباهي، أنظر له مستفهمة فيشير إلى تلك السيدة وبابتسامة عريضة يقول: «إنتي هتبقي شبهها كده لما تكبري!» أضحك جدًا وبسعادة بالغة أقول: «أيوه أيوه! كنت لسه بأفكر في كده حالًا!».

أجد نفسي أفكر كثيرًا أيضًا في موتي، حتى وأنا في مزاج رائق. أفكر في الفضة التي أمتلكها ولمن ستذهب. قررت أكثر من مرة أن أكتب وصيتي حتى أطمئن على سير أحوالي بعد موتي. الفضة تقتسمها البنات: تختار أمي أولًا، ثم يختار أخي قطعتين (واحدة لزوجته إذا تزوج، وأخرى لابنته إذا أنجب بنتًا)، ثم خالتي وبناتها، ثم عمتي وبناتها، ثم ابن خالي أصغرنا ووالدته، ثم ابنة خالي في فيينا وابنة خالي الأخرى وزوجة ابن خالي في كندا، ثم صديقاتي تبعًا لأقدميتهن ودورهن في حياتي. ملابسي الشتوية تذهب كلها للفقراء والمحتاجين. ليس لأحد من أقاربي أو أصدقائي أن يحتفظ بأي معطف أو كنزة. يمكنهن أن يقتسمن الكوفيات، ولكن الملابس الثقيلة ـ حتى الغالية منها، وخصوصًا الغالية منها ـ تذهب للذين يحتاجونها. لا أبالي بمن سيرتدي معطفي الثمين، طالما وهب الدفء لمن يحتاجه فعلًا. أحذيتي أيضًا تذهب للفقراء. أما كتبي فتوزع على الجميع، بنات وأولاد، كبار وصغار، أقارب وأصدقاء ومعارف. أريدهم أن يحضروا إلى منزلي مرة كل أسبوع أو حتى كل شهر، يفتحوا خزانتي وأدراجي ونوافذي، يستضيفوا الشمس والهواء في غرفتي، يجربوا كل ملابسي وحقائبي وعطوري ومستحضرات تجميلي ويأخذوا ما يريدون؛ يجعلونني أتنفس ولا يتركونني أموت.

أُدفن في عجيبة على شاطئ الأُبيض بمرسى مطروح ـ إشمعنى يعني جدي اتدفن في أبو قير على البحر؟ ـ ولا يأتي أحد لزيارتي بدون ورد بلدي وردي اللون. يُزرع حول قبري الريحان والخزامي والفُل والياسمين وشجرة توت صغيرة. لا أُريد مأتمًا لثلاث أيام ولا أُريد ذكرى الأربعين أو إحياء الذكرى السنوية. رغم كل شيء عشت حياتي بابتسامة وأغنية، فليست بي حاجة للحزن بعد غيابي. في ذكرى الأربعين يمكن لعائلتي وأصدقائي السفر للإسكندرية وقضاء يوم هناك. أوصيكم بسلطة «التراما» من النادي اليوناني، ثم آيس كريم الحليب من «جيلاتي عزة». الإفطار عند محمد أحمد، والحلو من عند ألبان السقعان (خصوصًا الكريم كراميل)، والشوكولاتة الباردة من البن البرازيلي، والكابتشينو من التريانون أو ديليس. الغروب عند قايتباي، والزلابية من شارع النبي دانيال قبل صلاة العشاء، والسهرة على الكورنيش أو على سطح منزلنا بالأزاريطة. تُرى هل سيتذكر أولاد خالتي عندها كيف جعلتهم يسيرون من ميامي حتى الأنفوشي مقنعة إياهم أننا في طريقنا إلى سموحة؟ هل سيتذكرون جمعي لتذاكر الترام وكتابتي على ظهر كل منها التاريخ والمكان الذي ركبنا منه والمكان الذي نزلنا فيه؟ هل سيتذكرون اليوم الذي صحت فيه: «السما مليانة نجوم الليلة دي، يا سلام لو النور يقطع!» فتنقطع الكهرباء في لحظتها عن كورنيش الإسكندرية بأكمله؟ ماذا سيتذكرون عني؟

في طريق العودة تحكي لي أمي أنها كانت تنتظر خروج باقي إخوتها من المقبرة، حيث إنها لم تقو على الدخول معهم، ولكنهم فوجئوا أن قريب آخر لهم قد توفى واتصلوا بالناس الموجودين بالمقبرة حتى ينتظروهم ليحضروا الفقيد الثاني. وهي منتظرة ومستغرقة في حزنها فوجئت أمي بالحانوتي يُشهد حارس المقابر على مساعده: «أنا قلت له خليك هنا ما تقعدش تنطط بين التُرب، وآدي رزق تاني جالنا آهوه! أنا مستعد أديك

٣٠٠ جنيه على اليوم كله». تستطرد أمي بدهشة وهي تضحك: «وأنا قاعدة حزينة وصعبان عليا آمال لقيت الناس دول بيسترزقوا.. يعني ناس بيزنس خالص.. طلعوني من الموود تمامًا!».

أن تنسى

أدركت اليوم أنني نجحت في تحقيق ما ظل الجميع يحثونني عليه: نجحت في التأقلم. بعد شهور عديدة تأقلمت على فكرة الفراق، وهي الفكرة التي ظللت طيلة كل تلك الشهور أستغربها ولا أفهمها: لا أفهم كيف أكون أنا هنا في حين يكون هو هناك، لا أفهم كيف يكون هنا هناك وهناك هنا، بعد أن كان كل شيء هو «هنا» وحسب. لم أستوعب. أظنني كنت أقاوم الاستيعاب.

«أبشع شيء ليس الحزن ولكن اختفاء الحزن».[١]

عندما قرأت هذه الجملة في حينها تعاطفت وتنهدت بحرقة، وقلت إن الموضوع برمته محزن. ولكنني أُدرك الآن أنني لم أفهم شيئًا.

من المحزن فعلًا أن تتأقلم، أن تعتاد الوضع. أن تكف عن التفكير والتذكر. أن تكف عن محاولة الإمساك بتلابيب الذكريات. أن تنسى وتستكين لهذا النسيان. أن تنسى، ولا تقوم من نومك في منتصف الليل لتقرأ رسالة قديمة أو تنظر لصورة ما. أن تتخلص من هذا الوجود اللاموجود لذلك الحزن الرابض في خلفية قلبك، والذي يتحكم في كل تصرفاتك

(١) من قصة «أنا الملك جئت» لبهاء طاهر.

ومزاجك؛ وجود يشبه صوت جريان الدم في جسمك: هو بالتأكيد موجود ولكنك لا تسمعه ولا تستطيع تحديده أو إسكاته.

أن تنسى هو أن يمضي اليوم دون أن تتساءل ماذا يفعل ذلك الشخص الآن. أن يمضي اليوم، والغد، واليوم الذي يليه دون أن تتوقف لتلتفت حولك وتتساءل أين هو. أن تعتاد البُعد، أن تعتاد أن تكون وحدك، أن تقتنع أنك وحدك. من المحزن ألا تتوقع شيئًا، وعندما يحدث شيء .. لا يثير فيك فرح أو شجن، فقط تَعجُّب عابر تستمر بعده في كي ملابسك والتفكير في اليوم المسجى أمامك. أن تفقد المفاجآت والمتوقعات بريقها على حد سواء، فلا تستغرب المفاجأة ولا تستنكر المتوقع.

تنسى.. فيصبح كل شيء بدون طعم، ليس لأنك حزين أو وحيد، ولكن لأن كل شيء فعلًا ليس له طعم. أن تفكر في شيء ما ولا تتوقف عنده، لا أن تتظاهر بأنك لا تفكر فيه.. لا.. أن تتخطاه وتستمر بالفعل. أن تستمع لأغنية حزينة تحبها فلا تظل تسمعها بلا انقطاع (كما كنت تفعل في الأيام الأولى)، ولا تهرع لإيقافها (كما كنت تفعل في الأيام التي تلت ذلك)، بل تسمعها ولا تتذكر حتى أنك سمعتها. أن تُسأل عن «الأخبار» فلا يؤلمك شيء وأنت تقول «تمام.. كله تمام»، وتنتقل بالحوار لأشياء أخرى ملموسة أكثر، لتتكلم عنها بصدق واستغراق وبدون أي افتعال للاهتمام.

أن تنسى هو أن تكتشف الصمت، بعد صخب كل تلك الأفكار وكل ذلك الكلام الذي تتمنى أن تقوله. أن تختزن الحكايات، وعندما يحين وقت حكيها تشعر بأنك فقدت الرغبة في الكلام، وتقتنع بأن الآن ليس الوقت المناسب. تنسى أن نصفك الآخر مريض، أو حزين، أو لديه مشاكل ما، فلا تؤنب نفسك على هذا النسيان، بل تنسى أنك نسيت. أن تنسى

هو أن يصبح السؤال «كيف سأتأقلم على الوجود»، بعد أن كان «كيف سأتأقلم على الغياب».

وتظن أن كل ذلك النسيان سيحررك، سيجعلك تعيش حياتك بطريقة أكثر طبيعية، سيجعلك أكثر اتساقًا مع واقعك، فتفاجأ أن الموضوع تعدى مجرد تفادي العائلة والأصدقاء، الخروجات والزيارات، والتوقف عن ممارسة ما تحب، فلقد أصبحت فعلًا تتوق للعودة إلى المنزل والنوم مبكرًا لتُنهي هذا اليوم بيدك، لتشعر أن وسط كل هذا العبث مازال لديك الاختيار بين أكثر من طريقة لإهدار أيامك.

كيف يبايعون الرئيس في شارعي

ألف وأدور في الشوارع الجانبية حتى أستطيع أن أدخل للشارع الذي يقع فيه كوافير محمود بدون أن اضطر للدخول في معمعة الشارع الرئيسي. يخطر لي للمرة الألف أنه كان من الأسهل أن أذهب للكوافير سيرًا. تلفت نظري لافتة ضخمة على أول شارعنا الجانبي الصغير: «كوافير هنومة يبايع السيد الرئيس حسني مبارك». لا أدري لماذا أذهلتني هذه اللافتة بالذات في خضم اللافتات التي سدت نور الشمس في الفترة الماضية. ربما لأني أعرف هنومة شخصيًا، وزوجها، وابنها الذي مات بجرعة مخدرات زائدة، وأعرف أنها ليس لها مواقف سياسية ولا حتى لا سياسية، كما أعرف أنها ليست عضوة في مجلس الشعب، ولا أظنها تطمح لذلك. فلماذا إذن هذه اللافتة؟

وصلت عند محمود (وهو شخصية تستحق مسلسل رمضاني كامل وليس فقط قصة صغيرة)، وسلمت عليه ثم رسمت على وجهي أمارات الاستنكار الشديد: «إيه يا محمود؟! إيه اللي إنتوا فيه ده! إزاي لحد دلوقتي ما حطيتوش يافطة مبايعة الريس؟!».

هز محمود رأسه أسفًا: «والله أنا قلت لشريكي لكن هو رفض.. رغم أني كنت ناوي أعمل حاجة مختلفة خالص!».

فاجئني رده فأخذت في الضحك: «حاجة مختلفة خالص إزاي يعني؟ كنت هتعمل له «هايلايت»؟ ولا «نيو لوك» بفورمة جديدة؟!».

«اضحكي اضحكي.. أنا باتكلم جد. أنا كنت ناوي أعمل من الناصية بتاعتي للناصية اللي أدامي تعليقة من القماش بتاع الصوان.. الملون ده.. واكتب على قماش نضيف كده «كوافير محمود يبايع السيد الرئيس.. برنامج خاص للعرائس» وأجيب فروع نور بتطفي وتنور كده...ولا حد يقدر يجي يقول لي شيل اليافطة دي».

«ومين يقدر يجي يقول لك شيل يافطة الريس؟».

«لأ مش يافطة الريس.. يافطة دعاية المحل.. تكونيش فاكره إن كل اللي حاطين يفط دول بيبايعوا الريس بصحيح؟ ولا يكونوا منافقين وحشين؟ لأ! دي كلها دعاية.. أيوه طبعًا! دول بيعملوا دعاية لنفسهم على قفا الانتخابات. هو أنا لو حبيت أعمل التعليقة دي على إنها دعاية للمحل تفتكري بتوع الحي هيسيبوني؟ لأ طبعًا! ده إنتي علشان تحطي أي يافطة أو تعاليق نور في الشارع لازم تجيبي إذن من الحي.. والحي يوافق لك أو ما يوافقش.. وكمان يقول لك تحطي كام لمبة في فرع النور!».

خرجت من عند محمود بشعر أكثر نعومة ومخ أكثر استنارةً. شكرته بحرارة قبل أن أخرج، فلولاه لكانت أخذتني الظنون بهنومة وتوجهاتها، وربما كنت قاطعتها أيضًا!

نظريتي اللغوية

لديّ نظرية لغوية تتلخص في أن حروف الكلمات تُعطي شكلًا لمعانيها وتعبر عنها. حاولت أن أعرض نظريتي على من أحترم آراءهم في اللغة، ولكنهم قالوا إنه مجرد ارتباط شرطي في عقلي بين معنى الكلمة وشكلها. لا بأس.. شرطي شرطي! بعد سنوات من دراسة النظريات اللغوية الغامضة (والعقيمة في بعض الأحيان)، أصبح لدي نظرية لغوية خاصة بي وهذه فرصتي لأعرضها.

تأمل معي كلمة «دهشة». تبدو لي الهاء ونقاط الشين كحاجبين مرفوعين لشخص مندهش. وحتى التاء المربوطة (عادةً تنطق هاء) تبدو لي هنا وكأنها شخص يقول: «هه؟!» باستغراب ودهشة.. هه.. هه.

وكلمة «ذهول». الذال مرتبكة كشخص يحاول أن يجد الكلمات وسط ذهوله. والهاء هنا تأخذ شكل عينين مفتوحتين تبرقان. والواو بالتأكيد فم مفتوح نسى صاحبه في غمرة ذهوله أن يغلقه. واللام خاطفة ولكنها طويلة، كالوقت. هل لاحظت أنه غالبًا ما تشعر بالزمن طويلًا عندما تكون مذهولًا؟

أما كلمة «غضب» فهي مثالي المفضل. تأمل الغين: شكلها يبدو لي كالزمجرة.. غغغغغغ.. تمهل في نطقها بصوت عالٍ. أما الضاد فهي تشبه

تقطيب الغاضب وتجهمه. والباء نهائية، مقتضبة وحاسمة، كشخص يزم شفتيه بعد ثورة غضب.. ببببب.

وخذ مثلًا كلمة «احتلال»: فيها أربعة حروف تكتب عمودية. تبدو لي الألف واللام هنا كالبنادق، كالأسوار، كالأيام السوداء التي تأتي عليك قطعة قطعة، كالليالي الطويلة التي يقضيها المقهور في الانتظار وبناء الأمل تلو الأمل، والحاء وضيعة وخسيسة ومتسللة، والتاء صادمة كلحظة اكتشاف الخيانة.

وكلمة «وطن» واوها يد تمتد لك لتحتضنك (أو تقرصك من أذنيك أو حتى تصفعك). والطاء طين وطمي تزرعه ليعطيك (أو تغوص قدمك فيه فلا تقوى على الحركة وتلبث في مكانك سنوات). والنون نيل، رقراق ورائق (أو ملبد وهائج). والوطن مكان وزمان. تسمع اسمه فترى صور صغيرة جميلة (أو صغيرة قبيحة). تسمع اسمه فتتذكر (ذكريات في الماضي أو في المستقبل). تسمع اسمه فتبكي وتضحك وتجد نفسك مندفعًا بسرعة لحافة الجنون. تسمع اسمه فتركض وتركض لتصل للنهاية، فإما تقفز وترتفع لتتحول إلى نجمة تضيء الطريق، أو تقفز وتسقط وتتهشم وتتحول إلى كيان مَنسي آخر يضاف إلى آلاف الأشلاء التي لا يعبأ بها أحد.

أضع «الوطن» و«المحتل» بجوار بعضهما البعض. اقرأ: «الوطن المحتل». يستحضر عقلي فورًا حكايات الأسرى واللاجئين. أرى المستوطنات نظيفة وأنيقة، وأرى الخيام تبدو دائمًا وكأنها ستنهار في هذه اللحظة بالذات. أرى الجدار العازل والأسلاك الشائكة والأطفال يجعلون من الجدار مرمى لكرتهم. أرى السيدة الفلسطينية التي تحكي عن أرضها التي بُني عليها الجدار. أرى اليوسفي يكاد أن يعطب في

صناديقه عند بوابات الحراسة، وأشجار الزيتون المخلوعة من جذورها. أرى الأمهات والآباء، من أوصل الرسالة ومن لم يوصلها. استحضر حكايات المعتقَلين والفاسدين، المجني عليهم والجناة، المفعول بهم والفاعلين. أرى طريق صحراوي طويل في آخره ليمان طرة في يوم حار ومترب وأحمر. أرى سيدة تمضي وقتها في الطهو لابنها وعندما تذهب لتراه في المعتقل لا يسمحون لها.. لعاشر مرة. أرى أب في الشارع يمشي بصورة ابنه الذي لم يره منذ سنوات، يحكي حكايته ويستمر في السير يجر خلفه صوته المكسور. أرى النخيل على ضفاف النيل في أسيوط. أرى السيدة التي تنام تحت الكوبري، لسنوات، حتى لم أعد أدري أين تنتهي السيدة ويبدأ سور الكوبري. أرى تلك السيدة التي نجحت في محو أمية رجال قريتها. أرى طفل بوجه متسخ على عربة قمامة يبتسم لي في لقطة تكاد تكون جزء من حلم لجماله وجمالها. أرى السيدة الأخرى التي لا تملك في منزلها غير غسالة يدوية: تقف عليها وتقول لي إنها لا تستعمل ذلك المسحوق لأنه يهودي. أرى إعلانات لا حصر لها لهذا المسحوق. أرى رجل يمشي في الشارع لا يستره سوى بضعة عبوات ورقية مكتوب عليها «أسمنت مصر». أرى صديقتي وهي تحكي لي عن مزرعتهم التي كانوا يزرعون فيها القطن حتى تحول الأبيض إلى أحمر محترق بين ليلة وضحاها بعد المبيدات. أرى غاندي يغزل ويغزل. أرى الدهشة والذهول والغضب ثم الغضب ثم الغضب.

من حافظتي أنزع قطعة قماش الحطة الفلسطينية التي أحتفظ بها وأضع علم مصر.

نص مراوغ

ملحوظة بخط المخرج على أول صفحة من النص: «شخصيات هذه القصة مظلومون لأنه لا أحد يريد أن يفكر فيهم».

يعرف المخرج أنه لا أحد يريد أن يفكر في أول مشهد رغم أن الجميع يحفظونه عن ظهر قلب. يبدأ الفيلم بجملة تتصدر الشاشة: «اليوم هو أول يوم في أيام كثيرة، طويلة جدًا وفارغة جدًا».

لا أحد يريد أن يفكر في شخصية البطل: قبل السفر، يريد أن يعود. يحاول أن يستغل الوقت، فيستغله الوقت. يشترط المخرج على الممثل الذي يؤدي دوره أن يسافر ليعود. يتساءل أكثر من مرة لماذا عليه أن يسافر؟ ألا يمكن أن يبدأ التصوير من مشهد العودة؟ يرفض أن يعد حقيبته (ربما غيّر المخرج رأيه). في مشهد السفر (وسط صراخ المخرج له ليثبت نظره على بوابة الخروج) لا يتوقف عن النظر حوله متوقعًا أن يظهر أحد في أي لحظة ليبشره بإلغاء المشهد. عندما يقابل حبيبته في مشهد الوداع يخشى مجرد مصافحتها حتى لا ينهار المكياج. نصحه المخرج بألا يقرأ كل النص، وألا يقول كل الجمل المخصصة له، حتى لا يُفسد الفيلم على نفسه (يكرر المخرج: «يجب أن يكون هناك إحساس عام من الترقب»).

يحاول خلال الفيلم ألا يصبح شخصية خيالية. يطمئنه المخرج مؤكدًا أن الخيالي أكثر إبهارًا.

وبالتالي لا أحد يريد أن يفكر في شخصية أم البطل: تدور في الشقة تجمع أشياءه المتناثرة هنا وهناك. تتذكر الكوب الصغير. تعود للمطبخ لتبحث عن شيء تلفه به حتى لا ينكسر. تصل حتى المطبخ ثم تنسى ما الذي كانت تريد أن تفعله. سيتألف دورها من سلسلة من المشاهد المكررة، حيث تنسى في كل مرة ما الذي عليها أن تفعله. يقرر المخرج أن يتركها لترتجل، فهي في النهاية أم. ستبرع في أداء مشهد الوداع، حيث تحتضن البطل وتطلب منه أن يكتب على حائط غرفته: ﴿**إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد**﴾ (القصص: ٨٥).

لا أحد بالتأكيد يريد أن يفكر في شخصية ابن أخت البطل: في غياب البطل يحاول أن يبني القلاع والحصون، ولكن ينتهي به الأمر مشيدًا الجسور والكباري. ثم يتمكن أكثر من مكعباته فيبني طائرات كبيرة لتأخذه لخاله. يكتشف أن من الصعب حمل الطائرات الكبيرة عبر باب غرفته، فيقنع ببناء الطائرات الصغيرة متحججًا بأن الطائرات الصغيرة أخف وأسرع. لن يبرع الطفل في أي مشهد بعينه لأنه لا يعرف كيف يمثل، والممثل الذي يلعب دور البطل خاله فعلًا.

لا أحد يريد أن يفكر في شخصية حبيبة البطل، خصوصًا بعد أن رفضت أن تكون البطلة وصممت على أن تكون حبيبة البطل وحسب (تعرف أن فرصتها أكبر في حصد الجوائز في دور مساعد). سيكون عليها أن ترتدي الأبيض في كل المشاهد. لا مانع من بعض الحلي لتضفي مظهر لا مبالٍ. اشترط عليها المخرج عدم تصفيف شعرها طوال فترة التصوير. يحاول المخرج أن يشرح لها أن حبيبة البطل مخلوق ناري، نصفه جنية

ونصفه إنسانة، ولذلك عليها أن تأتي ببعض التصرفات الخارقة بين الحين والآخر. تقوم بكل الحركات المطلوبة: تسقي زرعة الورد الصغيرة، وتقابل أصدقاءهما، وتقول كل الجمل المضبوطة، وتضع قبعة كبيرة من القش. سيكون عليها كذلك أن تتعلم الرقص عبر الأيام الطويلة، زيادة في التظاهر. ستبرع في مشهد المرآة: تواجه المرآة فترى أن لديها نصف وجه فقط (رؤية المخرج لمنظر الناس عندما يغيب أحباؤهم). لديها رؤية مختلفة للغاية لمشهد النهاية، تحاول عرضها على المخرج ولكنه يرفض. يصمم أن يكون آخر مشهد لها مستلقية في السرير تبكي بحرقة وتتمنى بشدة أن تحتضنها أمها وتقرأ لها في أذنها: ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ (النور: ٣٥).

ملحوظة بخط المخرج على ظهر ملزمة النص: «الممثلون غير متمرسين، والطفل لا يكف عن الغناء. هناك فرصة في نجاح الفيلم كفيلم تسجيلي. البطل ينسى حقيبته كلما جلس قليلًا في أي مكان. حبيبة البطل تبكي بالفعل في مشهد الوداع، رغم تحذيراتي المستمرة، وتصطدم بالحائط وسط بكائها فيتأخر التصوير أسبوعًا حتى تستعيد وعيها. أحاول أن أشرح لها أن المخلوقات النارية لا تبكي، فيهرع البطل ويأتي لها بكوب من الماء».

رحيل

سترحل. لأول مرة خلال الشهر الماضي تصدمها هذه الكلمة: سترحل. في خضم كل الترتيبات والتجهيزات، الحجز وتأكيد الحجز، التسوق وإعداد الحقائب.. فقدت إحساسها بالرحيل. والآن أدركت حقيقة الوضع: سترحل. بالرغم من كونه أمرًا متوقعًا إلا أن إدراكها له في هذه اللحظة فاجأها. إنها ـ فعلًا ـ سترحل.

تنظر حولها متفقدة المكان دون أن ترى. تسقط عيناها على اللوحة التي صنعتها بنفسها والتي تحتل حائطًا بأكمله من غرفتها الصغيرة .تمتلئ اللوحة بالصور والقصاصات والأقوال المأثورة وتشكيلة متنوعة من الأشياء التافهة التي ارتبطت بالتفاصيل الحميمة لحياتها. كل ما هو بسيط ولكن رائع. تجذب انتباهها قصاصة من الورق: «يندفع المغفلون حيثما تخشى الملائكة أن تطأ المكان».[1] تهز رأسها وتدمدم لنفسها: «أحسن من قراية الكف!».

اعتادت منذ أن بدأت في تجميع هذه اللوحة على أن تختار كل يوم قولًا مأثورًا من القصاصات المتناثرة على اللوحة لتتأمل في معناه طوال اليوم

(١) من قصيدة «مقال في النقد» للشاعر ألكسندر بوب.

أو تأخذه كشعار لليوم حتى. واليوم..؟ هل يندفع المغفلون حقًا حيثما تخشى الملائكة أن تطأ المكان؟ وهي.. ؟ هل هي مندفعة في الاتجاه الخاطئ؟ أو ـ أسوأ ـ أهي مندفعة لأنها تخشى أن تطأ الطريق الصحيح؟ والأهم من كل ذلك: أمغفلة هي.. أم ملاك مغضوب عليه؟

تبدأ في إعداد قائمة لترتيب الحقيبة لأن هذه المرة إذا نَسيت شيئًا لن تتمكن من العودة لاسترجاعه. تحاول أن تركز في القائمة لتأخذ عقلها بعيدًا عن أفكار الوداع التي تطاردها ولتؤخر حزم الحقائب قدر الإمكان.

تفكر: حزم الحقائب.. ويأخذ عقلها منحنى آخر. كيف ستحزم حقائبها؟ كيف يمكنها أن تلملم عمرها في حقيبة؟ ما الذي ستأخذه وما الذي ستتركه؟ ما المهم وما ليس ذا أهمية؟ ما الثقيل وما الخفيف؟ ما الذي يمكنها أن تأخذه وهي مطمئنة إلى إن النظر إليه لن يفطر قلبها وهي هناك؟ وما الذي يمكنها أن تتركه وهي مطمئنة إلى إن تذكره لن يفطر قلبها وهي هناك؟ وفي النهاية.. ما الذي يعنيها فعلًا؟ هل عليها أن تحزم حقائبها استعدادًا لفترة إقامة طويلة أم قصيرة؟ وكيف يمكنها أن تضع خطط طويلة الأجل وهي ليست متأكدة من مدى «طول» هذا الأجل؟ وهل الوطن هو فعلًا «وطن المحبوب»؟ الكثير والكثير من القرارات التي عليها أن تحسمها الليلة وكل ما ترغب فيه هو نزهة طويلة سيرًا على الأقدام.

عندما رحلت في المرة السابقة أقامت حفل وداع لنفسها. تصرف متوقع منها تمامًا! ولكن هذه المرة تتمنى لو كان بإمكانها الاختفاء وحسب. وهذا شيء آخر ينبغي عليها التفكير فيه: بمن ستتصل؟ على من ستمر؟ وخلف ظهور من ستتسلل؟ الهروب الكبير. لآخر مرة. يا رب!

....

أغسطس ١٩٩٧..

أمسية خانقة الرطوبة كعادة أمسيات أغسطس.

تقابلنا كلنا في المكان الذي نسهر فيه دائمًا. إنه حفل وداعي وعيد ميلاده. يا للقسوة .أصوات.. ضحكات.. حفيف ورق الهدايا المزعج.. موسيقى صاخبة.. وصمت مدوي في أذني. أقفز من مقعد لآخر، أضحك هنا، ألقي بتعليق هناك، وأتقافز بين المواضيع والأشخاص. أتحاشى لقاء عيني بأي شخص أو البقاء لوقت أكثر من اللازم بجوار أي شخص.

تنظر لي الصديقة ذات العيون الطيبة عن كثب وتمسك بيدي لتبقيني بجوارها: «إنتي مجنونة. إنتي عارفه إنك مجنونة. مش لازم تسافري. إزاي تعملي كده؟ إنتي أدامك كل حاجة..».

أقاطعها لأردد كلمات ديكنز مقلدة صوت عجوز حكيم: «.. كان كل شيء أمامنا، كنا جميعًا متجهين مباشرة للجنة، كنا جميعًا متجهين مباشرة للاتجاه الآخر».[١]

«بطلي تهريج! كلميني هنا.. أنا عارفه إن ماينفعش تغيري رأيك دلوقتي، لكن أنا محتاجه أفهم وإنتي بتجري بقالك شهر وبتلفي حوالين نفسك وبتتجنبيني. إديني سبب واحد مقنع».

أجلس في صمت.

«إنتي طول عمرك شخصية مقاتلة، لكن ليه دلوقتي أنا حاسة إنك سيبتي سلاحك؟».

يباغتني كلامها تمامًا. لم أتخيل إن بصرها حاد لهذه الدرجة. أنظر

(١) من رواية «قصة مدينتين» لتشارلز ديكنز.

إليها مصدومة، وبالتأكيد رأت الذعر في عيني لأنها احتضنت وجهي بين يديها وقالت: «أنا برضه عارفه إنك فكرتي في الخطوة دي كويس أوي، وإن ـ بطريقة مجنونة ولا منطقية وغبية جدًا ـ إنتي عارفه إنتي بتعملي إيه». تبتسم وتقبلني وتترك يدي. أجلس بجوارها يملؤني خواء رهيب ووهن مُعجز.

أخيرًا ألملم بقايا شجاعتي وأذهب لأجلس بجواره. أبتسم ابتسامة كبيرة لا تصل إلى عيوني القلقة.

يقول: «ها؟»

«ها أنت..».

يبتسم: «ها.. مسافرة؟».

«أيوه.. وأنت وافقوا لك على الهجرة».

«أيوه.. وإنتي مسافرة».

«أنت عارف بقى، أنت دايمًا تقول إنك بتقرا الكف لكن عمرك ما عملت كده. أظن مافيش وقت أحسن من دلوقتي علشان تشوف لي بختي! أنا أكيد محتاجة أعرف إيه اللي مستخبي لي هناك».

«أكيد.. مافيش وقت أحسن من دلوقتي .هاتي إيدك وتعالي هنا في النور».

يمسك بيدي ويتفقد خطوطها عن كثب. يقشعر بدني.

«بردانة؟».

أقول «لا» بشفتي دون صوت، مدركة أن البرودة برودة الروح وليس الجسد.

«خط الحيــاة عنــدك طويل. وخط الحب بيتقاطع مع خط الحياة بدري في حيــاتك. لكن هتحصــل لك حادثــة. أممممم.. حادثــة هتأثر على خط الحــب وخط الحياة في نفس الوقــت. وشــايف نقطتين: يمكن يكونوا ساعتين، يومين، أسبوعين، أو سنتين. مش عارف دول إيه».

على غير عادتي أضحك بصوتٍ عالٍ محاولة إبقاء الهيستريا بعيدًا وعلى مسافة آمنة. «يعني من الآخر كده أنت بتقول إني مفروض أبعد عن الحب علشان أعيش حياة طويلة وأنا بصحتي وعلشان أتفادى أي حوادث غير مرغوب فيها؟ حضرتك بتقول إني هاحب فعلًا، زي ما حلمت طول عمري، لكني هاقضي باقي حياتي «القصيرة» أرملة مكسحة كسيرة الفؤاد؟ ده ماكانش تصوري عن حياتي خالص!».

يثبت عيناه في عيني ولا يدعني أنظر بعيدًا: «لأ.. اللي بأقوله إنك لو حبيتي لازم تبقي مستعدة إنك تدي حياتك فدا الحب ده».

ننظر إلى بعضنا البعض في صمت للحظة ثم أسحب يدي من يده في ارتباك وأقول: «أنا مبسوطة إنك ما قررتش تاكل عيش من موضوع قراية الكف ده.. كان زمانك مقضّي معظم وقتك بين السجون وعنابر الكسور في المستشفيات!» أبرز له لساني لأغيظه وأغمز بعيني. يضحك بلا مرح. أقوم من جواره وأحلق بعيدًا.

نبدأ مراسم احتفالنا بعيد ميلاده ثم «الاحتفال» بسفري. الجو العام كوميدي جدًا وشلة الأصدقاء مصممون على أنني لن أصمد هناك أكثر من شهر واحد. يهددونني بالقدوم إلى المطار لتوديعي مصطحبين مجموعة كبيرة من القلل ليكسروها بعد إقلاع طائرتي. أضحك بشدة وأقول: «ومين قال إني هأقول لكم على ميعاد سفري؟!» تُفزعه هذه الفكرة وينظر إليَّ

بتفحص، يحاول أن يكتشف أين تنتهي المزحة وتبدأ الحقيقة. تفشل محاولته وأرى يأسه يبدأ في الظهور على السطح.

يسأل بهدوء: «راجعة إمتى؟»

«امممم.. بعد اتنين..».

«اتنين إيه؟!».

«ساعتين.. يومين.. أسبوعين..».

«ماشــي ماشــي.. خــلاص.. كنت باهرج معاكــي على النقطتين دول! محــدش يعرف يهرج معاكي أبدًا؟! ده إنتي قلبك أسود بشكل!».

أضحك ثم أقول بهدوء: «وأنت راجع إمتى؟».

«معنديش أي فكرة».

«هنفضل على اتصال؟».

«ما أظنش. على بال ما استقر هناك، وعلى بال ما تستقري إنتي هناك، هيبقى مافيش معنى إننا نكون على اتصال أصلًا».

أخيرًا جاء وقت الرحيل: مصافحات، أحضان، قبلات، ثم ألوح للجميع وأنحني في حركة وداع مسرحية ثم بصوت عالٍ يجاهد ليظل مرحًا أقول: «أشوفكم بكره يا كتاكيت!».

يمشي معي حتى الباب. نقف عند المدخل في صمت. يمد يده فآخذها.

يقول: «هابقى أشوفِك.. لما أشوفِك بقى».

«هاشوفك.. لما أشوفك، لكن أنا عارفه إنه هيبقى مش بعد وقت طويل زي ما أنت متخيل».

أغمز بعيني، يبتسم، أبتسم وأدير له ظهري وأمشي بثبات. أستقل طائرتي في صباح اليوم التالي بلا خوف.

....

واليوم؟ كيف سيكون الوداع؟ لقد حَرَصت على ألا تبوح لأحد بموعد رحلتها الحقيقي. قررت أنها ستتصل بهم من المطار لتقول إنها كانت على قائمة الانتظار وأن حجزها تم تأكيده في آخر لحظة. تعرف أن ذلك سيكون تصرفًا قاسيًا منها ولكنها تعرف أيضًا أنها ليست شجاعة كما كانت من قبل. كما تعرف أن هذه المرة «هتشوفهم لما هتشوفهم» لكن ليس قريبًا كما يظنون. ولكنها معذورة :عليها أن تعتني بنفسها وهي تعرف أنها لن تقدر على الوداع هذه المرة. لم تعد صغيرة وبالتالي أصبحت تخاف الكثير من الأشياء.

تلعن عقلها لأنه لا يتوقف عن الانسياق هنا وهناك حسبما تأخذه أفكارها. تُجبر نفسها على التركيز ولكنها تعرف أن كل محاولاتها للتفكير المنطقي الليلة ستبوء بالفشل، فعقلها يدبر انقلاب. ليس هناك من يُلام على هذا سواها: فلقد دربت عقلها دومًا على ألا يطيعها.

كلما حاولت أن تجهز حقيبتها كلما ازداد الأمر صعوبة: كل قصاصة ورقية، كل صورة، كل شيء على منضدتها أو مكتبها، كل شيء في دولابها.. كل شيء.. كل كل شيء يذكرها بأشياء أخرى، ويفتح عليها أبواب تأخذها في دهاليز تعود منها أكثر ضياعًا. تقضي وقتًا أطول مما تخيلت في الترتيب، تتوقف عند هذا وذاك لتتذكر قصة أو ضحكة أو دمعة وراء كل شيء تختار أن تأخذه أو تتركه. والقصة تأخذها لأخرى..

ثم لأخرى.. وأخرى.. تدور وتدور وتدور.. طواحين عقلها قد أصابها الجنون. تقرر أن تترك ألبومات الصور. لا داعى لأخذهم هذه المرة فهي لن تنظر فيهم. أبدًا.

تتصل بسائق الأجرة الذي تتعامل معه ليأخذها للمطار، وتنادي على حارس البناية ليأخذ حقائبها. تترك كل شيء على حاله. ستأتي أختها غدًا لتنظف المكان وتغلق الشقة. أرادت أختها أن تقوم بذلك ولم تقاوم هي. لم ترغب في أن تغلق النوافذ وتطفئ الأنوار. تنزل الدرج فتفاجأ بصديقتها ذات العيون الطيبة (الآن محجبة ومتزوجة وتنتظر مولودها الأول) في انتظارها عند مدخل البناية.

«أنا كنت عارفة إنك هتعملي حاجة زي كده. إزاي؟! إزاي يجيلك قلب تعملي كده؟!».

«يا خبر! والنبي ماتزعلي! أنا ماكانش قصدي أمشي كده.. عشان خاطري ما تزعلي.. كل حاجة حصلت فجأة!».

«يا خاينة!».

تتركها صديقتها وتعود لسيارتها تبحث بداخلها عن شيء ثم تعود لها بمظروف كبير.

«أنا جبتلك دي .اتصرفي بقى...شوفي لها مكان في شنطك. مش مشكلتي إنك قررتي تهربي كده!».

تفتح المظروف لتجد لوحة صغيرة لعصفور ناصع البياض يطير بحرية خارج قفصه في سماء زرقاء رائعة. العصفور يبدو سعيدًا وهادئ البال، القفص يبدو صغيرًا ولكن قويًا، والسماء تَعِد بالكثير.

«دي.. دي.. يعني.. مش عارفه أقول إيه.. دي جميلة أوي! ده رسمك إنتي؟!».

«لأ يا بطيخة. أجّرت رسام متنكر وخليته يرسمك من غير ما تاخدي بالك! طبعًا أنا اللي رسمتها! مين تاني عارفك كويس زيي كده؟»، تبتسم وتمتلئ عيناها حنانًا.

تسأل بجدية وحزم: «مين أكتر واحدة صاحبتك في الدنيا دي؟».

«إنتي».

«ومين اللي هتكون دايمًا موجودة وقت ما تحتاجيها؟».

«إنتي».

«ومين يا هانم اللي هتوصلك المطار دلوقتي لأنها طلعت أذكى منك بمراحل وفقساكي؟ مين؟!».

تضحك وتضحك وهي تحاول ألا تبلل دموعها اللوحة: «إنتي!».

«كان نفسي تكوني موجودة لما أولد. كنت عاوزاكي تبقى أول حاجة ابني يفتح عينيه عليها».

«ما تخافيش يا حياتي، أنا قريت إن الأطفال مش بيفتكروا أي حاجة عن حياتهم قبل سن تلات سنين، وأوعدك إني هاكون هنا قبل ما يبقى عنده ذاكرة أصلًا».

تضحك وتهز رأسها: «أنا عارفه إن لسه عندك وقت على ميعاد الطيارة. تعالي نتمشى شوية». لا تجادلها. تأخذ يدها وتسيران.

تسألها صديقتها: «إنتي عارفه يعني إيه بيتك؟»

«ما أظنش إني بقيت عارفه إجابة السؤال ده خلاص».

«بطيخة.. كالعادة.. هتعيشي وتموتي بطيخة! بيتك يا حياتي هو المكان

اللي لما ترجعي له هيرحبوا بيكي وياخدوكي وسطهم غصب عن عينهم وعن عنيك. إنتي عارفة كده.. مش كده؟ عارفة إن إحنا دايمًا هناخدك وسطنا في أي وقت ترجعي فيه؟».

«بشكل مجنون ولامنطقي وغبي جدًا.. أنا عارفة ده».

في طريقهم إلى المطار والمناظر تتسارع أمامها تفكر: «إن.. يمكن.. يمكن أنا مش شجاعة زي ما كنت.. يمكن أنا بقيت أشجع. ويمكن.. احتمال يعني.. إني مش مندفعة ولكني ماشية بشويش أوي في الاتجاه الصح. ومعايا الدليل مرسوم في لوحة.. وكله حب».

حنين

لن تصدق ما الذي فعلته الطفلة اليوم: أتت برزنامة حائط كبيرة، وحسبت الأيام منذ آخر مرة رأتك، وعندما وجدت أنها لا تستطيع العد بعد المئتين رمت القلم الأحمر الشمعي الصغير من يدها وزفرت بغيظ وصرخت: «يووووووووووه!! يووووه بقى!!!» وركلت الرزنامة والقلم، ووقفت في وسط الحجرة وأخذت تقفز وتدب بقدميها على الأرض في حنق وهي تهتف بأعلى صوت: «وحشتني بقى!!! بقى!! وحـشـتـنـيييييي!!!» قبل أن ترتمي في حضني باكية.

تطلب الأمر مني حدوتة عنك، وقطعة شوكولاتة بالبندق، ونزهة سيرًا على الأقدام حتى محل البراويز لنعطيه صورتك ليضعها في برواز خشبي، ذو لون عسلي دافئ يلائم لون عينيك، لتضعها بجوار سريرها كمبادرة صلح مؤقتة. هي الآن نائمة تعلو وجهها ابتسامة صغيرة، بينما أطوف أنا في المنزل على أطراف أصابعي، أمزق كل الرزنامات وأعيد الساعات إلى ما قبل مئتي الليلة وليلة.

أنا والضباب وهواك

اشفقت عليّ أمي عندما قلت إنني حزينة لعدم زيارتي للإسكندرية منذ خمسة أشهر، ففاجأتني مساء يوم الخميس:

«نطلع إسكندرية بكره الصبح؟».

«موافقة!».

«واللي يرجع في كلامه؟».

«يبقى عيل!».

صباح الجمعة: ضباب يلف القاهرة وتزيد كثافته كلما اقتربنا من المحور. وعند المحور كنت أمشي على سرعة ٤٠ كيلومترًا في الساعة، وأرى السيارة التي أمامي فقط لأن قائدها أضاء أنوارها. شعرت أنني سمكة في حوض السمك! شعرت شعور أسماك أمي عندما تسافر وأنسى تغيير المياه لهم. اجتهدت لأركز في الطريق وأنا أسترجع ما أعرفه عن الضباب.

يتكون الضباب عندما يبرد الهواء لدرجة يبدأ عندها بخار الماء في التكثف على هيئة قطرات صغيرة جدًا من الماء.

في العام الذي عُرف بعام الضباب كانت أمي (نظريًا) تذهب للكلية لتحضر محاضراتها وتقابل أصدقاءها، ولكنها كانت (عمليًا) تذهب للكلية بشكل عام لتلعب التنس وتجدف في النيل. كانت أمي مقررة اللجنة الرياضية ونائبة رئيس اتحاد الطلبة. وبين ليلة وضحاها أصبحت رئيسة الاتحاد، فلقد استُدعي رئيس الاتحاد لقضاء الخدمة العسكرية! وجدت أمي نفسها وسط مظاهرات واعتقالات ومحاكمات للطلبة: «رحنا النيابة. ورحنا معاهم المحاكمة. كان لازم نروح. مش معقولة يعني واحد زميلنا يبقى معانا بيحضر محاضرات وتاني يوم متهمينه بالخيانة العظمى!».

الأسبوع الماضي، في أول محاضرة لها في الفصل الدراسي الجديد، وبعد أن وزعت أمي على الطلبة المقرر وقائمة بالكتب والمراجع، سألت إذا كان لديهم أي سؤال، فقامت طالبة منقبة وسألت أمي: «إنتي ليه مش محجبة؟».

أول ذكرياتي عن الضباب: كنا نجوب أوروبا في سيارة مستأجرة. أعتقد أنني كنت في السابعة أو الثامنة من عمري لأن شعري في الصور قصير جدًا. كنا في مكان ما على جبال سويسرا وأخذت السيارة في تسلق جبل شاهق. كنت أنا وأخي نائمين واستيقظت لأجد أنني لا أستطيع رؤية أي شيء خارج نوافذ السيارة. سألت أبي فقال إن هذا مجرد ضباب، وأنني إذا نظرت جيدًا سأستطيع تمييز سفح الجبل العالي الذي كنا نرتقيه ببطء، وغالبًا شرح لنا أبي ما هو الضباب. لا أتذكر ما إذا كنت نظرت لأسفل أم لم أنظر، ولكن أتذكر أنني لم أكن خائفة وأخذت أتأمل بتعجب حالة انعدام الرؤية خارج النافذة حتى سقطت في النوم.

تقول أمي إن فروض الإسلام خمس.

وفي لبنان منذ عامين، وبعد جولة في غابات الشوف وبيت الدين ودير

القمر، توجهنا إلى غابات الباروك. جبل شاهق آخر. أشجار الأَرز في كل مكان وأسفلنا يتضاءل العالم بسرعة. إحساس غريب يتملكني وأنا أصعد لأعلى.. لأعلى.. لأعلى..

(أخذت أليس في الهبوط لأسفل.. لأسفل.. لأسفل في جُحر الأرنب).

الجو فوق الجبل محدد الملامح. لا أعرف إذا كان هذا هو التعبير الصحيح ولكن هذا كان إحساسي: جو صريح. العالم يبدو وكأني فجأة نظفت زجاج نظارتي. رائحة الصنوبر والأشجار والأرض تملؤني. أتخلف عن المرشد وباقي المجموعة وأقف في الصمت. الصوت الوحيد هو عجلات عقلي وهي تحاول أن تتوقف. فجأة يحيط بي الضباب. أدور ببطء في مكاني. لا.. هذا ليس ضبابًا.. إنه السحاب.. أنا أمشي بين السحاب! أنا فعلًا أمشي بين السحاب وهذا ليس تشبيه بليغ أو استعارة! كنت أود أن أقول إنني أحسست بالخفة والتلاشي في روح العالم ولكنني كنت مشغولة، أحاول أن أركز جدًا في مراقبة ماذا سيحدث لي وأنا أمشي بين السحاب، فلم أحس سوى بسعادة غامرة ثم قشعريرة مفاجئة تلتها رغبة شديدة في أن يحتضنني أحد. التقطت عود خشبي رطب وتنفسته بعمق، وأسرعت لألحق بأصوات عائلتي.

يقولون إنه عندما يقشعر بدنك فجأة فهذا معناه مرور روح ما عبرك.

والأسبوع الماضي أحاط بالطريق الدائري ضباب كثيف تسللت عبره قطرات كبيرة من المطر. أخذ الطريق مني ساعة وربع رغم أنه في العادي يأخذ نصف ساعة. اضطررت لأن أسلك طريق جديد، فزدت من ارتفاع صوت ألانيس موريسيت في المسجل وركزت كل جهودي على التدريب على نفخ بالونات كبيرة من اللبان حتى لا أفكر..

(الوقت متأخر.. الدنيا ضلمة.. الضباب وصل لحد عقلي.. غالبًا هأتوه لأني ما جربتش الطريق ده قبل كده.. بس أنا عندي إحساس كويس بالاتجاهات.. بالونة أكبر.. أيوه.. من غير ما تلزق في مناخيري.. كويس.. واحدة كمان..).

على أول طريق السويس (أو ما أظن أنه أول طريق السويس) انقشع الضباب فجأة وتوقفت الأمطار واكتشفت أني ـ يا سبحان الله! ـ عند بداية طريق التجمع الخامس! تنهدت وابتسمت بفخر: أهوه! ما توهتش! لازم تبقي واثقة في قدراتك! انتقل بالموسيقى إلى ديانا كرال. ألف اللبانة في منديل وألقي بها في المطفأة وأغني مع ديانا بأعلى صوت: «بيساميه... بيساميه مووووتشووووووو...»(١)

(١) من أغنية Besame Mucho من تأليف كونسويلا فيلاسكويز، تُعد ديانا كرال وسيزاريا إيفورا من أجمل من غناها ..في رأيي.

جزمايتيس

لديّ اعتراف: علاقتي بالأحذية علاقة مَرضية، فأنا أحب اقتناء الأحذية جدًا، وأسعد تسوق أقوم به هو الذي يبدأ بالبحث عن ملعقة خشبية مثلًا وينتهي بشراء حذاء (ونسيان موضوع الملعقة تمامًا). وأنا دائمًا مفلسة بشكل عام، وعندما يسألني أحد «أمال بتصرفي فلوسك في إيه؟!» تكون إجابتي التلقائية التي لا تتغير: «في الجزم والكتب!».

ولقد عشت فترة يؤنبني ضميري (وجيبي) بشدة على هذا الهوس الحذائي غير المبرر أو المفهوم، ولكني عرفت بعد ذلك أن جميع النساء مهووسات بالأحذية، وأن التسوق لحذاء هو من أكثر الأشياء التي ترفه عن المرأة وتخرجها من أي انحراف مزاجي، فاسترحت لكوني أنثى طبيعية. وبقدر ما يضحكني فؤاد المهندس وهو يحتضن حذاء جميل قابله بالصدفة في الشارع فيقول: «بوز جزمتك يا مدام يدل على أنوثة طاغية»، بقدر ما أتفهم موقفه تمامًا، وأقدره جدًا لاقتناء ذلك الدولاب الضخم الذي يحتوي على الآف الأحذية الجميلة والمختلفة.

كل ما سبق مفهوم وطبيعي، ولكني ركزت مؤخرًا في تصرفاتي واكتشفت أنني أحب أن أكون حافية القدمين معظم الوقت: ففور دخولي بيت من البيوت التي أحبها وأستريح فيها أخلع حذائي وأطوي ساقي تحت

مني، ولا أضع الحذاء مرة أخرى إلا عند خروجي من البيت، وأول شيء أفعله بعد الوصول لبنايتي بعد يوم طويل جدًا هو خلع حذائي في مدخل البناية، وتسلق الطوابق الأربعة مستمتعة ببرودة البلاط تحت قدمي. كما تذكرت أنني كثيرًا جدًا عندما أحضر حفل زفاف تُلتقط لي صورة أو لقطة بكاميرا الفيديو وأنا حافية، أو أسير من القاعة إلى السيارة حافية (فعلت ذلك مرة في موقف السيارات بعد حفلة بدار الأوبرا فرفض أخي أن يسير بجواري!). وبعد ارتداء الكعب العالي لفترة طويلة أقود سيارتي بدون حذاء. ومرة انقطع صندلي في شارع ٢٦ يوليو بالزمالك، فخلعت الصندل الآخر ووضعتهما في حقيبتي، وسرت حافية حتى وجدت محل أحذية، وكنت في منتهى السعادة لأني بذلك استطعت أن اشتري حذاء أحمر كنت أريد مثله منذ بداية الصيف. فإذا كنت متلهفة كل هذا التلهف على تحرير قدمي من براثن الأحذية، فلماذا هذا التعلق المرضي بها إذن؟! من الواضح أن هذه بداية مرض جديد سيُطلق عليه «جزمايتيس». حفظنا الله وإياكم شر الأمراض!

خطوات جديدة

أفتح الباب، وأخرج، ناوية أخطّي خطوات جديدة.

أتعشيت في المطعم اللي كنا بنحبه. فاكر؟ كوكتيل الجمبري وشوربة البصل على الطريقة الفرنسية. كنا شيك أوي إحنا، مش كده؟ إحنا كنا فاكرين إيه؟ المطبخ الفرنساوي هيبقى طعمه زي الأكل الفرنساوي؟ شوربة البصل في الزمالك هاتجيب الحي اللاتينى من باريس لحد عندنا؟ معدتي بتقلب لما بأفتكر. المرة دي بقى أخدت كل أولاد عمتي الصغيرين. التسع عيال. قعدوا ياكلوا ويرغوا ويزنوا على الجرسونات، وطلبوا مشاريب أد كده، واتخانقوا وهم بيختاروا أطباق مش عارفين ينطقوا اسمها أصلًا. أنا بأفكر إزاي؟ أنا هآخد شوربة البصل بتاعتي! مايهمنيش شربناها كام مرة سوا، ولايهمني أد إيه كنا فاكرين نفسنا شيك وكلاس وبنفهم. دي شوربة البصل دوا للنفس العليلة! أصلًا شوربة البصل دي روح المطبخ الفرنساوي! طلبتها لينا كلنا. العيال حبوها خالص! فكرة العيش اللي عليه جبنة سايحة وغطسان في الشوربة جديدة عليهم تمامًا ومذهلة جدًا لدرجة أنهم قعدوا ساكتين طول ما هم بيشربوها. ربنا يحميهم: بخدودهم المورّدة، وصوتهم العالي، وضحكهم اللي طالع من القلب. وبعد الأكل حضنوني وباسوني ووشوشهم غرقانة كاتشب. كل ما هأدخل المطعم ده

بعد كده هأفتكر إزاي مريم، بنت عمتي اللي عندها تلات سنين وأقرب واحدة لقلبي، قامت فجأة واتسحبت من جنبي، وراحت عند ترابيزة جنبنا، بصت للراجل اللي قاعد عليها باحتقار وزمت بقها وضيقت عينيها وزعقت فيه بصوت عالي جدًا: «أنت.. غبي!!» الصراحة يعني الراجل كان شبه راغب علامة في الفيديو كليب الأخير ولكن ده مش معناه يعني أنه يتشتم! لكن برضه: مريم أكيد كان عندها أسبابها. أنا واثقة في فطرتها. شربت شوربة جديدة علشان أمحي مرارة قديمة.

طلعت الجبل الرائع اللي شفنا من فوقه الغروب يجي مئة مرة. اخترت يوم شتوي مثالي: شمس ودفا مع هوا ساقع كده ع الخفيف، علشان أمحي اليوم التاني اللي كان كله غيم وكآبة، لما كان نفسي تحضن إيديا وكنت أنت عاوزني أخبطك بحاجة تقيلة. كان مفروض أفهم يومها. كان مفروض أشوف العقل القاسي بدل ما أحلم بالقلب الحنين. كان مفروض أعرف مين اللي له الكلمة الأخيرة: العقل والا القلب. المرة دي، اليوم الشمس، أخدت بنت خالي وأخويا. هما الاتنين جايين من أماكن برد، والشمس كويسة ليهم. الشمس دايمًا كويسة لينا. ساعات بأحس بالشمس داخلة على قلبي عِدل. أنا كنت عاوزاهم يخزنوا شوية شمس في قلبهم علشان الأيام المغيمة اللي جاية. الشمس يومها كانت كريمة معانا والجو كان ذوق. اتكلمنا كتير، وعيطنا، وحضنّا بعض، وشربنا عصير قصب. حسينا بعد كده إن كل حاجة مهما كانت وحشة هتعدّي. دلوقتي كل ما أفتكر الجبل ده أفتكر اليوم الشمس ده. كل حاجة هتعدي طالما الشمس في قلبنا. كان لا بد من غروب جديد ينسيني القديم.

مشيت في الشارع اللي مسكت فيه إيدي أول مرة وسألتني إذا كنت شايفة إني جميلة، إذا كنت حاسة إني لا أُقاوم. اشتريت صواريخ صغيرة كتير جدًا، ورحت هناك ليلة العيد مع صاحباتي الاتنين ولعنا الصواريخ: أحمر.. أصفر.. أزرق.. أخضر! أنا ج ـ م ـ ي ـ ل ـ ة! أنا فعلًا لا أُقاوم! قعدنا نضحك ونضحك، والناس اللي ماشية في الشارع يبصوا لنا باستنكار ويعوجوا بقهم ويكرمشوا مناخيرهم ويقولوا: توء توء، قمنا اديناهم شوية صورايخ، وفجأة الشارع بقى مهرجان من الألوان السعيدة. أنا بحب أوي لما الناس تفتح مخها لحظة بس وتسيب نفسها خالص. في رأيي اللي حصل لهم كان تغيير تام في الثوابت والمعتقدات. روّحنا مشي أنا والبنات. حسيت إني لأول مرة بأحس بالهواء على وشي. حسيت زي ما أكون النَفَس اللي بآخده محدش خَدُه قبل كده أبدًا. زي ما يكون جسمي اكتشف التنفس. دلوقتي كل مرة أعدي في الشارع ده ابتسم ابتسامة كبيرة. صواريخ وأنوار جديدة بدل النار القديمة. ألوان سعيدة. جميلة. لا تُقاوم.

رحت الحتة اللي على النيل اللي كنا بنروحها في الشتا ونقعد نتشمس. رحت لوحدي. مش هتصدق! تصور كان في بنت قاعدة هناك بتعيط؟! فاكر البنت التانية اللي كانت برضه قاعدة هنا في نفس المكان بتعيط؟ فاكر إزاي قعدت تضحك عليها، وبعدين قعدت تضحك عليا لما قلت لك إني عاوزة أروح أتكلم معاها لأني حسيت إنها هترمي نفسها؟ أنا لسه مقتنعة أني كان ممكن أساعدها لو كنت سبتني. كان ممكن على الأقل أقول لها النكتة اللي بحبها! ولكن طبعًا أنت كالعادة مسكتني من جناحاتي وخلتنا نسيب المكان كله ونمشي. أنت طول عمرك ماكنتش بتحب تبقى حوالين أي حد زعلان أو حزين. مش الجو بتاعك ده. المرة دي قعدت لوحدي: منبهرة بالمنظر وبغبائي. كلامك لسه بيرن في ودني. لكن سامعة صوت عياطها ونهنهتها. قعدت بعيد عنها علشان ما أقاطعهاش في اللحظة الخاصة دي. أنا عارفة أد إيه مهم إن إحنا نشفق على نفسنا. محتاجين ده من وقت للتاني. محتاجينه من نفسنا علشان مانروحش ندور عليه بره. بعد شوية رحت لها. طبطبت على كتفها بصت لي. بصت بعينين طيبة.

قلت لها إني آسفة على اللي حصل وَزعَّلها كده، وقلت لها إني متأكدة إنها أكيد هتبقى أحسن. بدأت تعيط تاني، قمت أنا معيطة. قعدت أطبطب على إيدها: الحركة العصبية بتاعتي اللي بحاول بها أريّح القلوب المعذبة. إديتها لبانة وقعدنا ناكل اللبان وإحنا ساكتين. قلت لها النكتة اللي بحبها وقعدت تضحك وتعيط، وتعيط وتضحك. ضحك جديد علشان يبعد كل القديم. المكان ده دايمًا هيفضل «الحتة الشمس» بالنسبة لي. سلمت عليها ومشيت وأنا حاسة إني إنسانة أفضل، وحاسة إني فخورة بنفسي. أنا مبسوطة أوي علشان جناحاتي رجعت لي.

هأقفل الباب وأمشي لبعيد، هآخد خطوات جديدة تمسح القديمة.. دلوقتي بس أقدر أمشي من تاني.

عالم صغير

يبهرني صغر هذا العالم على رحابته: ينهار البرجان فأتزوج، وتسقط بغداد فتنتهي حياتي المهنية.

أحببت زوجي قبل أن نتزوج. أحببت فيه أحلامه عن التغيير وقدرته على أن يعيش التغيير الذي ينادي به. وأحس هو في وقت مبكر من حياته أن مواهبه لن تقدر في مصر وعليه أن يتركها ليستطيع أن يفيدها أكثر على المدى الطويل، فعمل جاهدًا على أن يهاجر إلى أمريكا فور حصوله على شهادته الجامعية. وكجزء من مشروع الهجرة اتخذ زوجي (قبل أن يصبح زوجي) قرار بعدم الارتباط حتى لا تكون لديه أي قيود قد تحول بينه وبين حلمه عندما يحصل أخيرًا على تأشيرة الهجرة.

ثم تقابلنا. وبعد خلافات استمرت ثلاث سنوات ـ يقول فيها هو إنه لا يريد الارتباط لأنه مسافر عاجلًا أو آجلًا ولا يريد أن «يربطني جنبه» ويظلمني معه، وأقول فيها أنا إني لا أريد الارتباط لأني لا أريده أن يضحي بحلمه من أجلي ـ حلّ «الإرهابيون» مشكلتنا وضربوا برجي التجارة بنيويورك. ولأن زوجي يعمل في مجال البترول فأصبح من غير الواقعي أن يتخيل أن بعد أحداث سبتمبر سيُسمح لعربي أن يقترب من بترول أمريكا، فتزوجنا.

لحسن الحظ (أو سوئه) لم يمر وقت طويل على زواجنا حتى اكتشفت أن سبب خلافاتنا السابقة لم يكن مجرد تمسكه بحلمه وتمسكي بتمسكه بحلمه؛ كان يريد أن يكون هو «هو» وأكون أنا كما يريد هو.

ولأني اخترت زوجي بحرية تامة وبكامل قواي العقلية فقد تحملت سخطه الدائم على الحياة، وعلى الذين يحيونها، وعلى حال البلد، وعلى الذين يعيشون فيها، وإن كنت أجد صعوبة في فهم أسباب سخطه أو التعاطف معه: فهو يعمل في شركة أجنبية، ويقبض راتبه بالدولار، ولديه سائق خاص، وإجازة سنوية شهر في العام، وجميع أصدقائه من الأجانب المتقززين من مصر أو المصريين، الذين لا يملون من تذكيرك بأصولهم التركية، أو الشامية، أو الروسية، أو الرومانية، أو الفارسية، أو أية ملكية أخرى لم يعد لها وجود.

ولكنه كان دائم التذمر من القمامة، والزحام، ورئيسه المباشر المصري، والفساد، والجهل، والذباب، وإشارات المرور.. إلخ، ويفتعل مشاجرات مع الزبال والمكوجي واللبّان فقط لتتاح له فرصة إعطائهم درسًا عن الحياة في الدول المتقدمة، وكيف أننا لن نتقدم طالما تأخر المكوجي في إحضار الملابس المكواة.

كنت أنزل السلم يومًا فسمعت اللبان يسأل البواب إذا كان «الراجل الأهبل» موجود فوق، ففهمت فورًا أنه يتحدث عن زوجي (حيث لا يسكن أحد «فوق» سوانا) فثرت ثورة عارمة، واكفهر وجهي، والتمعت عيناي بالدموع، وقررت أن أنزل السلم سريعًا لألحق باللبّان و«أوريه شغله»، ثم تداركت نفسي وتذكرت أن آخر مرة مر علينا اللبان أنتقد زوجي ذوقه في اختيار ألوان ملابسه وقال منفعلًا: «لازم يكون في بوليس يقبض على الناس اللي لابسة مبهدل!».

ضحكت في سري: «طيب ما هو أهبل فعلًا!».

ينفجر زوجي في وجهي عندما أحاول أن ألفت نظره إلى أن في أمريكا هناك مشاكل بطالة وفقر، وهناك ظلم وجهل أيضًا، وأحاول أن أدعم وجهة نظري، فأقول إني شاهدت فيلم أمريكي مأخوذ عن قصة حقيقية، وتدور أحداثه في أمريكا عن مشكلة المتشردين عندهم، فيكون رأيه أن «الأفلام دي بيعملها الحالمين والشيوعيين أعداء أمريكا».

كانت وجهة نظره أنني أسبح في بحر من الأوهام الجميلة التي لا أريد أن أفيق منها. اقترح عليّ أن أكتب قصة اسمها «سميرة في بلاد العجائب» فربما يستطيع أن يفهم كيف أرى هذه البلد. ويرى في عملي في مركز ثقافي مهتم بالمواهب الشابة الفلسطينية هروبًا من واقعي «المصري» (كأن الواقع الفلسطيني شيء يتوق المرء للعيش فيه).

وبرغم كراهيته للجرائد المصرية أصبحت من عادات زوجي المقدسة قراءة صفحة الحوادث كل يوم. يقول إنه يتعلم منها أساليب للدفاع عن نفسه عن طريق المعرفة المسبقة لحيل اللصوص وأن ذلك يكسبه قدرة على فهم النفس البشرية. أقول له إن النفوس البشرية في صفحة الحوادث هي نفوس مريضة في أغلب الأحوال أو مضطربة على الأقل، فيرد: «نعم، ولكنها مازالت نفوس وتندرج تحت البشر».

وفجأة وبرغم توقعاتنا جميعًا، وبرغم شجبنا وإدانتنا وولولتنا وخبط رؤوسنا في الحائط.. سقطت بغداد. بدا لي «بوش» وكأنه يلعب لعبة النقاط التي كانت أول ما تعلمناه في روضة الأطفال: نصل الكرة بحرف الكاف والجزرة بحرف الجيم، أو نصل الأرقام لنشكل أرنب أو قطة، ولكن في حالته أوصل «بوش» الإرهاب بحروف اسم «صدام» ووصل الأرقام ليشكل واقع جديد مرعب.

وهنا قررت الجهة التي تمول مشروعات مركزنا الثقافي سحب دعمها وتوجيهه إلى مركز آخر مهتم بالمواهب الشابة العراقية هذه المرة. نحاول أن نبحث عن مصدر آخر للتمويل بلا جدوى، «فالموضة السنة دي العراق» على رأي مديري.

أنظر إلى الأنقاض التي خلفها سقوط البرجان حولي: زواج ينخر فيه سوس عدم التفاهم وعمل ملقى على قارعة الطريق لا يريد أحد أن يرميه في القمامة ولا أن يحتفظ به في متحف.

أمضي أيامي متسمرة أمام نشرات الأخبار والتحليلات السياسية. أخاف أن أغيب عن البيت لعدة ساعات لئلا يفوتني شيء قد يغير مسار المهزلة اليومية. يستمر زوجي في نشاطاته اليومية بمنتهى الالتزام والاهتمام (وعدم الاهتمام بالعالم خارج حدود أطرافه الأربعة). شيئًا فشيئًا أسقط في رمال الاكتئاب المتحركة فلا أقاوم. يعود يومًا من العمل ليجدني ممددة على أرضية المطبخ أبكي وأنا ممسكة بقنينة زيت زيتون. يقرر أنه حان الوقت للطبيب.

يسألني الطبيب بماذا أشعر فأقول إنني لا أعرف. يسألني مما أعاني فأقول إنني لا أعاني. يصمت قليلًا ثم يسألني متى مشطت شعري آخر مرة فأقول منذ ستة أيام فيصف لي مضاد للاكتئاب.

لا أشاهد التلفاز الآن. منعه الطبيب. أقضي أيامي أحاول أن أعرف كيف تمر أيامي. وعندما يعود زوجي من العمل، على غير العادة أجد نفسي أريد أن أجلس قريبة منه. لا أريد أن يختلي بي عقلي. أتنهد. يرفع زوجي عينيه من جريدته وينظر إليّ متسائلًا.

أقول: «يلعن أبو أمريكا!».

يرفع حاجب واحد مستغربًا.

فأضيف: «وبن لادن!».

يهز رأسه مؤيدًا ويعود إلى صفحة الحوادث.

أنا...بس على أكبر

تصرخ في أمي: «لن تفهمي. لن تفهمي حتى تصبحي في سني وتشعري بما أشعر».

أشرد وأراني بعد ٢٠ سنة من الآن..

لن تختلف خطواتي كثيرًا: خطوات واسعة وسريعة نسبيًا. لن تختلف نظرتي كثيرًا: أسير ناظرة للأمام، أنظر للعالم في عيونه، أرى ولا أرى، وعلى شفتي ابتسامة شاردة، وفي رأسي أدندن بأغنية. دائمًا هنالك أغنية. وغالبًا ما تكون لفيروز. تحكي فيروز قصصي.. كلها.

لن يتغير نظام يومي كثيرًا. أستيقظ مبكرة. أشرب قهوتي وأقرأ شيئًا أو أتفقد بريدي الإلكتروني. أسقي نباتاتي الصغيرة وأطعم القط. أغسل أو أنشر أو أجمع الغسيل. أفعل نفس الأشياء ولكن ببطء وتأنٍ. ليست هناك جدوى من الهرولة.

سأحرص على أن يبقى شعري بنفس اللون: بني غامق. أقصه فتنهرني سامية وتقول إن الشعر القصير يجعلني أبدو أكبر من سني. أضحك وأقصه أقصر بعدها بأسبوعين.

أمر على خالتي. طبخت بطة وكالعادة لا أحد يأكل البط غيري وغيرها.

تشتكي من ضعف سمعها وأشتكي من ضعف سمعي. تقول خالتي إنني دائمًا ومازلت أعيش على «شواشي الدُرَة»: لا أتوقف عند كثير من الأشياء، ولا أهتم بالكثير مما يهتم به من حولي، ولا أعلّق على الأحداث في حينها. وتلومني خالتي دائمًا لأني لا أتذكر أسماء أحفاد أحفاد أولاد خالاتي. أقر بخطائي وأتعلل بذاكرتي التي تسوء مع الوقت (ولكن لا أعترف لها أنني لم أعد أعرف الأحفاد من الأولاد: كلهم يشبهون بعضهم البعض، وكلهم نسخ جديدة أو قديمة من أهاليهم وأولادهم).

يتصل بي صديق طفولتي لأحضر و«أتصرف» مع ابنه. أحب ابنه كثيرًا. يكتب ويكتب ويكتب، شعرًا رقيقًا لا يريه لأحد. لا أذكر ما الذي فعلته لأكسب ثقته، ولكنه قرر يومًا أن يريني أشعاره، ومن يومها وأنا من أكبر معجباته. أعرف من الأشعار أنه يحب. أراه في الشارع يومًا معها فأُسقط نظارتي وأنحني لأبحث عنها تحت السيارات حتى يمر هو وهي بدون إزعاج. يعترض أبوه على قراءاته التي لا تنقطع ويرى أن «مستقبله هيضيع» إذا استمر يعيش بين صفحات الكتب أكثر مما يعيش فعلًا. انتحي بالولد جانبًا وأقول إن بإمكانه أن يأتي بكتبه ومذاكرته ويقرأ ويذاكر كما يريد في مكتبي. أنا أفهم وهو يفهم، فمجال دراستنا واحد. نبتسم وأخرج فأقول لوالده إن الولد لا يستطيع التركيز في هذا المنزل المزعج ولذلك سيذاكر في مكتبي. يرفع صديقي حاجب واحد مستنكرًا، ثم يفهم فيبتسم: «ماشي يا رحاب».

تتصل صديقتي الأستاذة الجامعية لتبلغني أن أحد كتابنا المحبوبين قد توفى. تقول بحسرة: «حتى ده يا رحاب بقى من الكلاسيك».

ويوم الجمعة أُشعل البخور وأخرج البطاطين في الشمس، وأجلس هكذا لبعض الوقت أشبع ساقي بالدفء، وأراقب ذرات التراب وهي

تسبح في شعاع الشمس. أتذكر بيت جدتي الذي وُلِدْت فيه. أقرأ لها الفاتحة. أنزل مع أمي لنتغدى سويًا ونذهب للسينما كعادتنا كل جمعة. اليوم أنا التي سأختار المكان فأختار الكوربة. أحب الكوربة في الصباح المبكر. أحبها عندما تبدأ الدكاكين في الاستيقاظ . أحب رائحة الخبز الساخن من مخبز فينوس. أحب انسياب نور الشمس بين البواكي. أحس أن الشمس تلعب معي استغماية: الآن أراها.. الآن لا أراها. أستيقظ فأجد أمي مستيقظة. هذا هو الوضع منذ أن كنت طفلة، فأمي تستيقظ مبكرة جدًا. كانت تقول لي إنني كلما تقدمت في السن سيقل نومي. ولكن كلما قل نومي قل نومها هي أيضًا، فيظل بيننا هذا الحوار الأبدي حول لماذا أنا صامتة هكذا في الصباح ولماذا تتناول هي الغداء في الثانية عشرة ظهرًا. يعجبنا الفيلم ونتناقش فيه طوال اليوم، ونختلف على رؤيتنا له، وتقول إني لم أفهم الفيلم وأقول إنها ستفهم وجهة نظري بعد ستة أشهر. يعجب أمي فستان لا يعجبني. تسألني لماذا لا يعجبني فأقول أسبابي، فتتمسك به أكثر وتسرد كل فضائله. أقول إنه سيجعلها تبدو أكبر سنًا فتتراجع عن اختيارها. أمشي بسرعة فتمشي أمي ببطء، أبطئ من خطوتي فتسرع أمي: فروق توقيتنا هي قصة حياتنا.

في المساء أطفئ كل الأنوار وأتلذذ بالظلام والصمت. من بعيد أسمع أصوات أطفال يلعبون في الشارع. لا أستطيع تمييز كلامهم ولكني أعرفه: عشرة عشرين تلاتين أربعين خمسين ستين سبعين تمانين تسعين مّيه، نطوا علينا الحرامية، سرقوا الفول والطعمية..

خلاويص؟

لسه!

خلاويص؟؟

لسه!

خلاويص؟؟!!

خلاص.

شــكر..

مفيش حياة إلا عند غيرك..
تعيش في خيره ويعيش في خيرك..[١]

أولا.. أحب أشكر كل قراء المدونة المخلصين، الجداد والقدام، اللي هيطلع لهم «مج» هدية واللي هيطلع لهم تي ـ شيرت :) لولا قراءتكم وتعليقاتكم ماكنتش عمري فكرت إني أنشر، وأحيانًا كتير بأتخيل إن يمكن كمان ماكنتش هأكتب. وأحب أشكر أي حد نصحني بكتاب أو أغنية أو فيلم أو مكان أو حتى حاجة حلوة تتاكل.. كل الحاجات دي كانت غذاء شهي جدًا لحواديتي.

ثانيًا.. أحب أشكر كل أصحابي الخياليين.. إيزابيل الليندي وجابرييل جارسيا ماركيز.. لطيفة الزيات ورضوى عاشور.. أهداف سويف ومارجريت آتوود.. ميلان كونديرا وكيران ديساي.. صنع الله إبراهيم وبهاء طاهر.. نودار دومبادزة ولويس كارول.. فؤاد حداد وصلاح جاهين.. هاروكي ماروكامي وبانانا يوشيموتو.. أورهان باموق وخوسيه ساراماجو.. آمي تان وزادي سميث.. جورج آمادو وإبراهيم أصلان..

(١) من قصيدة للشاعر الجميل فؤاد حداد.

هيلين فيلدينج وترومان كابوتي.. وكمان إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي.. وأدهم صبري.. رجل المستحيل!

ثالثًا.. أحب أشكر أصحابي الحقيقيين.. علشان مجرد وجودهم حواليا خلّى الدنيا أدفأ وأجمل وأريح وأرحب. ماما علشان كانت أول جمهور وإدتني مكافأة سخية على أول قصة كتبتها، وعلشان هي ما بتبطلش حواديت وعلشان دايمًا تقول: «بصي القمر حلو إزاي.. بصي السما لونها جميل إزاي».. بابا علشان ما بيبطلش قراءة وعلشان هو كمان ما بيبطلش حواديت وعلشان بيحب دايمًا يورينا حاجات جديدة.. شهاب علشان بيغيظني باللي بيقراه وفي نفس الوقت بأكون مطمنة إني لو احتجت أعرف حاجـة عن كافكا ولا نيتشة مش مضطرة اقرأ لهم، كفاية أسأله وهو يحكي لي حواديتهم.. خالي جابر وسُو مراته علشان بيعرفوا إزاي يبعتوا لي شـحنة حب كبيرة عن بُعد بأحس بها فورًا.. عائلات حجازي وضاحي وسلامة في مصر والعالم وعلى رأسهم خالتو هدى وعمتو نجوى وطنط فاتن وخالو ممدوح وعمو عماد علشان احتضنوني واتبنوني لسنين طويلة.. سامية جاهين وعمرو عبد العليم علشان فتحوا لي دنيا فؤاد حداد وصلاح جاهين وبيرم التونسي وسيد درويش وناس كتير كتير.. والأهم من ده فتحوا لي قلبهم.. آل جاهين وآل حداد كلهم وعلى رأسهم أمينة جاهين وأمين حداد وبهاء جاهين وحسام فخر ونجلاء طاهر علشان كل الضحك والأشعار والأغاني والحكايات.. عمو أحمد عبد العليم علشان كل مرة كان بيسلِّم عليا بحرارة ويقول لي إن آخر قصة كتبتها عجبته جدًّا، كنت بأحس إني قرَّبت أبقى كاتبة بحق وحقيق.. هبة الطودي وعالية مسلم ومروة عسكر علشان بيقدروا بنورهم يغسلوا لي روحي.. خالد رضا رفيق اللعب ومتعهد قطط روما.. محمد مرسي علشان قال حلوة وبالذات علشان قال ملتوتة.. إنجي العبد علشان ما كانتش بتندهني باسم

غير «إيفا لونا» وعلشان وعدتني تترجم قصصي للأسبانية.. نور الأسعد وسوزان عليوان علشان الإلهام والكلام والكتب والكلام والكلام.. أميرة عبد الخالق علشان أحاديث الكتب الطويلة التي لا تنتهي إلا بخسارة مادية كبيرة.. محمد حمادة علشان جنانه وصبره وعلشان بالعند فيه بدأت التدوين («إشمعنى يعني حمادة عنده بلوج وأنا لأ؟ وهو إيه البلوج ده أصلًا؟»).. محمد مستجير علشان حوارات الحكمة وعلشان ياما شال على قلبه كتب كتير ليا (ولسه ياما هيشيل).. لبنى عبد المجيد شكري علشان عرفتني على لطيفة الزيات وعلشان قعدت تسألني أسئلة خلتني أفكر في حاجات كتير وفتحت في دماغي مليون فاتوحة.. غادة محمود ونرمين إدريس ومنى أحمد سيف ويسرا الهواري وشاهيناز عبد السلام علشان بطابيط وعندي أمل كبير فيهم.. هبة الزيادي علشان استحملت كلامي المتواصل عن غلاف الكتاب وعلشان قالت: «لازم تعملي شعرك.. إنتي بقيتي كاتبة مشهورة دلوقتي».. إبراهيم فرغلي علشان إداني كورس مكثف في الأدب العربي ودلّني على كتب كتير وعلشان دايمًا كان يسأل إمتى هانشر بقى.. أ. عبد الحق علشان كتب مقال في نقد كتابتي (في مدونة «الشارع») إداني دفعة أمل وخلاني أحس بمسئولية كبيرة.. منال بهي الدين وعلاء عبد الفتاح علشان باحبهم.. فاطمة مسلم علشان جمال روحها.. عزة لملوم علشان حنانها وتشجيعها وعلشان صعيدية.. ريهام شبل علشان هي جدعة وعلشان رقعت زغروتة في وسط الشارع أول ما عرفت إني أخيرًا هانشر.. أمنية حشمت وكارولين أديب علشان كل السنين دي كلها.

رابعًا.. أحب أشكر اللي كانوا السبب في ظهور الكتاب ده من أعماق أعماقي للنور.. حنين حنفي علشان كتبت المقالة إياها في الدستور (ده غير البحث إياه).. هديل غنيم علشان قررت تبقى المحررة بتاعتي وعلشان

أخدت المقالة إياها وقالت لي: «قومي إديها لأستاذ زيادي» وألقت عليه خطبة عصماء لحد ما استسلم وقال: «وماله.. هاتي حاجاتك وريهاني».. دينا الهواري علشان جت معايا نديها للأستاذ زيادي وحضنتني أوي (يومها وقبلها وبعدها وفي أي وقت حسيت إني محتاجة حضن).. الأستاذ أحمد الزيادي علشان قال إن في أمل.. بلال فضل علشان قال لهم إن في إيزابيل الليندي صغيرة قاعدة معاهم هنا.. المهندس إبراهيم المعلم علشان قال ما تورينا الحاجات اللي بيقولوا عليها عبقرية دي.. أميرة أبو المجد علشان خلّتني أُدرك إني كنت فاهمة غلط خالص وأخدت الحاجات تقراها.. وعلشان تشجيعها المستمر وصراحتها وثقتها فيا.. وعلشان دخلت عليا المكتب يوم الأربعاء ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٧ بعد الساعة خمسة وقالت لي: «عندي خبر سعيد.. سعيد سعيد.. إنتي هتبقي من كُتّاب دار الشروق».

خامسًا.. أحب أشكر وليد طاهر (الفنان بالأوي!) على فنه وعلى صبره (وعلشان ما رفدنيش).. وأحب أشكر سيف علشان قال: «أهم حاجة تبقي إنتي مبسوطة بالكتاب» وعمل كل حاجة علشان فعلا أبقى مبسوطة بالكتاب جدًا جدًا.

عن المؤلفة

رحاب بسام

خريجة قسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب بجامعة عين شمس. عملت في مجالات بحوث التسويق، وكتابة الإعلانات، والترجمة، وتعمل الآن في مجال نشر كتب الأطفال. بدأت رحاب الكتابة في مدونتها «حواديت» منذ عام ٢٠٠٤. تقضي رحاب وقتها ما بين السرحان والقراءة، ولديها بعض المحاولات العبثية في الرسم وعزف البيانو واللغة الإسبانية، ولكنها تُجيد صنع الكوفيات من التريكو الملون. تؤمن رحاب بأنها وُلدت لتصطاد التنانين، وتجمع الزهور، وتحكي الحواديت، وتضحك.. وُلدت لتترقرق وتتهادى كنبع حالم، وتسير حافية عبر الأيام المشمسة.

لا نحاول أبدًا أن نقنعها بعكس ذلك.

الفهرس

مدونـ@الشروق سلسلة جديدة تصدرها دار الشروق للمدونات العربية المتميزة.

رحاب بسام كاتبة مدهشة لها نفس ساخر شديد الخصوصية.

بلال فضل

حققت مدونة رحاب بسام جماهيرية عالية.

أخبار الأدب

◆ ◆ ◆

.. أتمدد على سريري في شبه إغماءة رافعة قدمي على وسادة لتكون أعلى من مستوى جسمي. الدنيا حر.. حر.. حر. يؤلمني الحر جدًّا لأنه يخفض ضغطي المنخفض بطبيعته، وتتورم يدي وقدمي من الرطوبة.. أمارس هوايتي المفضلة في ظل هذه الظروف: الحملقة في السقف. زينت سقف غرفتي بالنجوم والزهور الفسفورية. كيف نسيت الفراشات؟ لماذا لا توجد فراشات فسفورية بجوار الزهور الفسفورية؟ على العموم هذا خطأ يمكن تداركه. يا رب.. يا رب بطيخة.. وتكون ساقعة يا رب. أركض في دماغي خلف فقاقيع الصابون.. فقاقيع.. فقاقيع.. فقاقيع. إيه الكلمة دي؟ بلالين أحسن. بلالين الصابون..

الغلاف: وليد طاهر



دار الشروق
www.shorouk.com